# الطهـــــر في العهـــــر

## روايـــــة

# الطهـــر في العهـــر

## روايـــة

د. واكـــد ماجد شعلان

لوحة الغلاف : محمد غالب عبدالسلام

اسم الكتاب: الطهر في العهر (رواية).

المؤلف: د. واكد ماجد شعلان.

سنة الطباعة:2014.

كمية الطباعة: ألف نسخة.

الترقيم الدولي:ISBN 978-9933-22-052-5

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 00963 11 5627060

هاتف:00963 11 5637060

فاكس: 00963 11 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

www.darrislan.com

# الإهــــــداء

لأرض شهادة عفافها وطهرها قانئ دماء الشهداء

طاهرة رغم عهر الزمان

لشامخات من بلادي تراب تحت نعلهن أطهر من نخاسي

هذا الزمان

من أرحامهن أطفال هم رغم ألم المخاض أمل الغــد

لجولان لم يبدل الهوية .

# المقدمـــــــة

أعزائي القراء الكرام بعد الدعاء لكم بالخير والعمر المديد، أكتب لكم روايتي هذه لأصور لكم البؤساء بصورتهم الحقيقية ، حاولت أن أرسم لوحة للمذلين والمهانين بأحداث واقعية، حاولت في روايتي هذه أن أخلط اليأس بالأمل، والحزن بالعشق، وأن أهدي السعادة بعض من الدموع، ربما قد يكون رأيكم في روايتي أن فيها شيء من الخيال ولكنها في الواقع قصة حقيقية قمت بتغيير بعض الأسماء فيها، حفاظاً على خصوصية الأحداث، فكانت جيهان بطلة روايتي الأساسية بمثابة الحاضر الغائب وكانت هي رمز الفقر والشقاء، وبطل الرواية كان يرمز للمال والجاه، وعملت في روايتي هذه على توطيد العلاقة بين الفقر والثراء وأن أجعل الثراء يبحث عن الفقر والشقاء، وحاولت أيضا أن أصور لكم عذاب الضمير وتأثيره على الطيبين كما أنني تحدثت عن الطهر والعهر ووجود هاتين الصفتين

والخلاف بينهما، والبحث خلف العدسة البعيدة في وجود الطهر في العهر وكيف استطاع القليل من العهر أن يتغلب على الكثير من الطهر، وكيف استطاع غبار العهر أن يخفي ملامح الطهر، و هكذا فأن بطل قصتي كان الخبير الذي أزال غبار العهر عن بطلة قصتي جيهان و أظهر جوهرها الطاهر الذي استطاعت ظروف الفقر والشقاء أن تتغلب عليه وتجعله فريسة سهلة لكل من يصطاد في الماء العكر .

## عن الرواية

(حدثت احداث الرواية في المغرب العربي)

كانت تملأ ليلتي الخمرة والحوريات اللواتي كن يتراقصن حولي ويداعبن مشاعري، كنت في تلك الليلة أرقص مع تلك الفتيات الجميلات وكانت عيوني لا ترى سوى كأس الخمر وأجساد حوريات تغذي أنظار الحضور بجمالهن، فكنت أحمل كأسي وأتمايل معه كما تتمايل السمكة في حوضها، وحتى جدران الصالة كنت أراها ترقص معي في تلك الليلة فلم يكن يشغل تفكيري سوى راحتي وسروري، أحسست بالتعب قليلاً فذهبت نحو البار لأحتسي المزيد من الخمر، جلست على الكرسي التي كانت تنوي أن تهرب من تحتي و بلسان ثقيل بالكاد كان يستطيع التكلم قلت: يا هذا أسكب لي المزيد من الخمر فرأسي لم يكتمل سكره بعد أريد أن أكمل أغنيتي :((ناسي كل همومي ناسي في حضوري مع أحلى ناسي)) وحين التفت جانبا التقت عيناي عيني جميلةٍ تجلس إلى كرسي، نازعت

نور القمر  بهاءً وحسناً . جميلةُ لم تمر في ذاكرة عيوني أجمل منها .تحمل بيدها كأس خمر وترقص وهي جالسة على كرسي كأنها وردة جوري في مزهرية ترقص حين يداعب أوراقها نسيم الربيع واكتمل وصفي لهذه الوردة حين اهتز الكرسي الذي تجلس عليه من حركة رقصها فهربت من كأسها بعض قطرات الخمر وسالت على صدرها من تحت قميصها الأحمر الذي انحلت أزراره من الأعلى فسمحت لقطرات الخمر بالمرور بسلاسة على صدرها كما تمر قطرات الندى على أوراق الوردة في صباح الربيع فكانت بسمتها تسحر كل من نظر إليها فلم أعد أستطيع التحكم بعيني.

تمردت عيناي على عقلي وصارت تراقب حركاتها وتحاكي عيونها التي كانت أيضا تحاكيني، غلبني الحماس لأجرؤ وأكلمها فالتفت نحوها وسألتها ما  أسمك يا جميلتي فقالت في هذه الليلة كان اسمي جيهان فضحكت وسألتها وغدا فقالت غدا يسقط حرف جديد

من اسمي وتكون الحرية في اختيار اسمي لمن يملك جسدي، فضحكنا معا بعض الوقت وسألتها ماذا تعملين فقالت: أهدي بسمتي لعشاق الليالي، أحرمها من نفسي ليتلذذ فيها سكارى الليالي، فقلت وكم ثمن متعتي معك في هذه الليلة قالت مائة دولار، فقلت لها مع الغرفة أجابت لا نذهب إلى الفندق هناك الليلة بمبلغ ستمائة درهم لم يكن يهمني في تلك الليلة كم هو المبلغ زاد أم نقص كل ما كان يشغل بالي هو كيف ستكون بأحضاني فكنت أكلمها باللغة الإنكليزية حيث أنني أفهمتها أنني شخص روسي، فخرجنا أنا وهي من النادي فتقدم إلينا أحد السائقين الموجودين أمام النادي وعرض علينا أن يرافقنا إلى الفندق المطلوب بمبلغ مائة درهم فكلمته باللغة العربية وقالت له خمسين درهم يكفي فأصر على المائة درهم، طبعا السائق اعتقد أنني لا أتكلم العربية فالتفتت جيهان نحوي وكلمتني أمامه بالإنكليزية ما رأيك فقلت لها المبلغ ليس مشكلة ولكنني لم أرتاح لتفاصيل وجهه فأنا أخشى

مكروها منه، فقالت حسنا أعتقد أنني أعرف الطريق فالتفتت نحو السائق واعتذرت منه وقالت له نريد أن نمشي قليلا ـ مع أن السائق وافق في آخر المطاف على الخمسين درهم ـ مشيت معها إلى حيث كنت تركت سيارتي وفتحت باب السيارة ودعوتها بالصعود،تفاجئت حيث لم تكن تعلم بوجود سيارة معي لكنها عندما صعدت إلى سيارتي لم تسألني لماذا لم أخبرها بوجود السيارة.

وبينما نحن نسير في الطريق سألتني هل النقود في جيبك لأجل أن ندفع أيجار الغرفة في الفندق، فقلت: لا فأنا أملك فيزا كارت، قالت: حسنا أعرف بنكً قريباً من هنا، فأكملنا طريقنا باتجاه البنك المقصود وحينما وصلنا وأنا أستعد للنزول مدت يدها وأمسكت بيدي وقالت لي لحظة أنتظر لو سمحت فهناك شابين واقفان أمام الجهاز البنكي لم أرتاح لوجودهم هيا بنا نذهب إلى بنك آخر فنظرت إليها وقلت لها ما أطيب قلبك أنني أشعر وكأنني أعرفك منذ زمن بعيد فوصلنا إلى جهاز آخر وسحبت مبلغ ألف درهم

واستمرت جميلتي بقيادتي إلى الفندق المقصود وفجأة وضعت يدها على خدها وصرخت وقالت يا ويلي لقد نسيت الطريق آسفة هيا لنوقف تكسي يمشي أمامنا ويدلنا إلى الطريق الصحيح فنزلنا أنا وهي إلى جانب الطريق وفشلت محاولتنا مع أكثر من سائق كانوا جميعهم ينظرون إلينا بازدراء ويرفضون التكلم معنا وفي آخر المطاف قبل أحد السائقين مرافقتنا بسيارته إلى الفندق وبعدما وصلنا إلى الفندق المطلوب طلبت مني باللغة الإنكليزية أن أدفع للسائق خمسين درهم فأخرجت المبلغ المطلوب من جيبي وناولته للسائق فما كان من السائق إلا صرخ بوجهي و رمى بالخمسين درهم على الأرض وأخذ يقول ما هذا خمسين درهم أنني لن أقبل بأقل من مائتين وخمسين درهم نحن من الأجانب نأخذ خمسمائة درهم ولكن لأنكي بنت بلدي أطلب منك نصفه فالتفتت جيهان نحوه وقالت له أنت كاذب ولن أدعه يدفع لك سوى خمسين درهم وأخذ الجدال يشتد بينهما وأنا استمع وأنظر مثل طفل بجانب أمه، كانت

تصرخ بوجه السائق وكأنها هي من ستدفع من جيبها الدراهم وأصبح السائق يعلو صراخه ويهدد بأنه سيطلب البوليس فرأيت أنه لابد من تدخلي فأخذت السائق جانبا وقررت في داخلي أن أدفع له ما طلب، فإذا بجيهان تتدخل بيننا وتهمس في أذني وتقول لي أحذر منه أنه شخص غدار انتبه أن يغافلك ويغدر بك و على ما يبدو فأن السائق انتبه لما تقوله فصرخ بها وقال: أنت من تغدرين يا أيتها الزانية. وعادت جيهان للمشاجرة معه من جديد، فسمع الشجار حراس الفندق وتدخلوا وقاموا بشتم السائق وطرده من دون ولا درهم واحد فشكرنا الحراس ودخلنا باب الفندق متجهين نحو الموظف الذي يقوم بحجز الغرف وعندما دخلنا لاحظت أن استقباله لجيهان كان حارا وسلام معرفة وأخذ يسألها عن أحوالها وبعد السلام قالت له جيهان كم تريد منا في هذه الليلة فابتسم لها وقال لن أطلب كثيرا فقط ألف درهم فقالت له ويحك يا هذا أنا كل يوم في ضيافتكم والإيجار لا يتعدى الستمائة درهم فقال لها الموظف ما بك

تفاصلين وكأنك أنتي من ستدفعين المال من جيبك. طبعا كان كل هؤلاء يظنون أنني لا أفهم ما يقولون، و استمر الموظف في حديثه: لو قلنا لهذا الأجنبي ادفع ألفي درهم لدفعهم دون أن يعترض، فصرخت جيهان في وجهه وقالت له: لن أدعه يدفع سوى ستمائة درهم وإلا سوف أخبر المعلم حسن ماذا تفعلون، فقال لها الموظف: هاتي الستمائة درهم وادخلي غرفتك يا جيهان فأنا كنت أمزح معك فنحن أصدقاء وأنت زبونة عندنا أهلا وسهلا بكما.

وأخيرا دخلنا الغرفة، سأختصر كلامي لأنه في كل قواميس الدنيا لا توجد تعابير أستطيع أن أوصف فيها ما قدمته جاريتي لي في تلك الليلة وفي الصباح الباكر و أنا أهم أن أصحو من سباتي كان أول ما خطر في ذهني ساعتي وسلسالي الذهبي والذين لا يقل ثمنهما عن العشرة آلاف دولار، فقمت من فراشي مثل المجنون أبحث عنهما فنظرت إلى الكرسي فرأيت ساعتي موجودة عليها وسلسالي الذهبي مرمي أمامي على السرير في المكان الذي

كانت تنام فيه جاريتي في تلك الليلة فجلست بعدها على الكرسي وعيوني تبحث بالغرفة عن جيهان وبعد قليل رأيتها خرجت من الحمام وهي تنشف شعرها وتبتسم فنظرت إلي وقالت صباحك سعيد كيف كانت ليلتك فلا أدري لماذا أصابني الذهول وأنا أنظر إليها فكانت عيوني تتمرد على عقلي وشعرت أنها لا تريد أن تكف النظر عنها ولساني لم يعد يقوى على التكلم فأمسكت بيدها وشددتها إلى صدري وأخذت أقبلها بحرارة فشعرت وكأنني في حلم جديد لا أريد أن أصحو منه إلا أن جرس الهاتف اللعين سرق مني حلمي.

كان الهاتف من ذلك الموظف قائلاً: الوقت قد أنتهى عسى أن تكونوا قد سررتم بضيافتنا .

خرجنا من الفندق متجهين نحو سيارتي حيث طلبت مني جيهان أن أوصلها إلى أقرب نقطة حيث تسكن، و عندما وصلنا حيث تريد جيهان أن تنزل قبلتها من جديد قبلات الوداع وقلت لها حسنا يا حبيبتي حان وقت الفراق هل

تريدين  مني شيئا فقالت: لا فقط المائة دولار التي كنت قد اتفقت معك عليها فضحكت وقلت: كيف وهل كان بيننا اتفاق على ذلك؟ قالت: نعم،   فقلت لها: على كل حال ليس هناك مشكلة ولكن صدقيني فأنا لا أملك النقود في جيوبي حالياً، فقالت: لعلك صادقٌ أنك لا تحمل دراهم في جيوبك لعلهم في الجهاز البنكي القريب من هنا. فقلت لها: صدقيني البارحة سحبت آخر ألف درهم ولم يبقى معي شيء ولكن أعطني رقم هاتفك سأتصل بكِ في المساء حتى أعطيك المبلغ. نظرت جيهان إلي وعيونها توشك أن تدمع وقالت: لعلك ستكون آخر من يخدعني يا هذا وأغلقت باب السيارة بهدوء وانصرفت .

كان ذلك في صباح يوم الجمعة حين استيقظت من سباتي على صوت آذان الفجر وفتحت النافذة ونظرت إلى المحيط الذي يرسم أجمل لوحة لشروق الشمس وراء جبل دفن تحت صخوره آلاف البشر عندما ضرب زلزال رهيب مدينة أغادير منذ أربعة عقود وكانت الأمواج تمتطي بعضها البعض

وكأنها لا تريد أن تكتفي من غضبها فتوجه نظري للبعيد قليلا فرأيت صياداً جالساً بقاربه يتصيد رزقه،ولا أدري أهي هوايةٌ اعتادها أم أن له أطفال ينتظرونه ليأتي لهم بقوتهم، وعلى مسافة ليست بعيدة بكثير كانت هناك سفينة عملاقة، قال لي أحدهم أنها تحمل في طياتها صناديق العصائر متوجهة إلى أوربا فقلت في نفسي الفقراء هنا يجنون الثمار ليأكله الأمراء في بلاد العجم، فأنا كنت قد شاهدت هؤلاء المساكين بأم عيني كيف يجمعون الثمار تحت أشعة الشمس الحارقة فهم يعملون أكثر من ست عشر ساعة لينال الواحد منهم ما لا يزيد عن ثلاثين دولار حيث يكون قد جنى ما لا يقل عن طن أو طن ونصف، وبعدها تنقل الفاكهة إلى محطة التغليف التي تحتوي على ما لا يقل عن ثلاثمائة عامل وعاملة يقومون بتوزيع الثمر على الصناديق بالأوزان المطلوبة للمشتري الأعجمي،و الذي يراقب عملهم حتى ينال بضاعة جيدة تصل إلى بلاده .

وبعد  انتهائهم من العمل تأتي إليهم سيارة كبيرة فيصعدون إليها جميعهم بمشهد يجعل العيون تذرف دما من شدة الحزن عليهم، فتنقلهم إلى بيوتهم بالريف الجميل الذي يسكنون فيه، للنوم والراحة من عناء عمل يومٍ مضن و الاستعداد للقاء يوم جديد من العناء والتعب والقهر والحرمان.

بعدها أغلقت النافذة وبدأت أحضر نفسي للخروج من غرفتي نظرت إلى المرآة فتصورت أمامي جيهان تلك الفتاة التي خدعتها فقلت لنفسي كم كانت صادقة تلك الفتاة بدأت أتذكر حين سألتها ماذا تعملين فأجابت أضاجعك مقابل مبلغ من المال وحين كنت بحالة سكر وأنا غائب عن الوعي وكانت ساعتي وسلسالي الذهبي أمامها أول ما فكر فيه عقلي فكر بساعتي وسلسالي حيث كان من السهل جدا على جيهان سرقتهما فلم تفعل، وتذكرت حين كانت تحميني من لصوص الطريق وسائقي السيارات وموظف الفندق ومع كل خدماتها لي خدعتها، فقلت في

نفسي كم كنت شبيها بذلك العجمي الذي يستغل عرق وتعب هذه النسوة اللواتي يعملن في المرفأ.

تنهدت في أنفاسي وقلت في داخلي هيا لأكمل لباسي وأنزل لأرى أحداث يومي ماذا فيها، وبعد انتهائي من تحضير نفسي تعطرت بعطر ياسمين الشام وأغلقت غرفتي ونزلت وبينما أنا أهم بالخروج وقبل أن أصل إلى مخرج الفندق سمعت صوتا يرمي علي السلام استدرت، فإذا بصاحب الفندق يتجه نحوي ويقول لي: تفضل لنحتسي فنجان من القهوة معا.

ومع أنني كنت في عجالة من أمري إلا أنني لم أُرد أن أرفض طلبه لشدة ذوقه وتواضعه، فشربت قهوتي معه وشكرته وتوجهت باتجاه المصعد وفجأة سمعت صوت صاحب الفندق مرة أخرى يناديني التفت نحوه فقال لي: آه أعذرني فقد نسيت أن أخبرك، قال لي موظف الليل قبل أن ينتهي عمله اليوم أن هناك امرأة أتت وسألت عنك.

فقلت له: امرأة ؟ أنا لا أعرف أحداً هنا ، ثم هل هي امرأة أم فتاة؟.

فقال لي: لا ليست فتاة إنما امرأة بالخمسين من عمرها.

فقلت له: على كل حال شكراً ها أنا هنا موجودٌ.

ولا أعلم لماذا غيرت مساري وعدت إلى غرفتي وأنا أكلم نفسي وأقول عجبا يحتمل أن هناك خطأ بالموضوع فأنا لا أعرف أحد هنا لا بد أن هناك خطأ مؤكد ، كفى ..كفى ما هذا الشعور لقد تعبت هل يعقل أن معي مشاكل بالقلب أو ضغط الدم .

عدت إلى غرفتي ورميت جسدي على السرير دون أن أخلع حتى حذائي وبينما أنا أستعد للنوم من جديد شعرت أن المطر هطل فجأة فأسرعت باتجاه النافذة ونظرت للخارج فلم أرى سوى شمس حارقة وجو صيفي جميل، أغلقت النافذة وعدت لأسترخي من جديد كأنني سمعت صوت المطر مرة أخرى يا ألهي ما هذا هل أنا جننت؟ ماذا يحصل معي؟ جلست على السرير وفتحت باب الغرفة وتوجهت إلى

الموظف المعني بتسليم الغرف للنزلاء وطلبت منه يا سيد هل من الممكن أن تبدل لي غرفتي فأنني غير مرتاح لها.

فقال لي: نعم ممكن جداً، فأنت ضيفنا وصديق معلمنا ولا نستطيع أن نرفض لك طلب، ولكن يا سيدي لا أعلم هل من أحدٍ أخبرك عن المرأة التي أتت بالأمس وسألت عنك؟ عندها لم أشعر بنفسي ألا وأنا أصرخ بوجه ذلك الموظف المسكين وأقول له: كفى كفاكم هراء أنا لا أعرف أحد هنا ولا أحد من معارفي أيضاً يعلم أنني موجود هنا، هذا شيء لا يحتمل.

نظر إلي الرجل وقد جحظت عيناه، وأنا أمسك بقبة قميصه أريد أن أشده إلى الخارج، فقال لي: أهدأ أرجوك يا سيدي أنت رجل محترم.

فشعرت عندها بذنبي وقلت له عفواً أنا آسف جداً سامحني إنني مرهق قليلاً.

قبلته من رأسه تعبيراً عن أسفي واعترافا بخطئي، و ثم خرجت وأنا أضحك وأكلم نفسي وأقول: لعنك اللّٰه يا أيها الشيطان.

قررت أن أخرج من الفندق لعلي أتنفس هواءً نقياً وارتاح من توتري، اتصلت بأحد معارفي وطلبت منه أن يرافقني إلى أحد المطاعم بالمدينة لتناول وجبة الغداء،.وكان الوقت حوالي الثانية ظهراً، حيث أن آذان الظهر يكون في هذا الوقت وكما جرت العادة في أغادير عند آذان الظهر تغلق المحلات والمعامل والمدارس بحيث يتوجه الجميع إلى الصلاة وبعد الصلاة يجتمع العمال وأفراد الأسر لتناول وجبة الكسكس وهي وجبة يتميز بها الشعب المغربي، وهي عبارة عن حنطة ولحم الغنم وعلى وجهها الباذنجان والجزر والتين والزيتون يوضع كل هذا في صحن من الفخار وعليه غطاء يشبه الطربوش المغربي وهو أيضا مصنوع من الفخار يوضع على جمر خفيف لحوالي الساعتين بهدف استواء الطعام بشكل هادئ.

و كما الجميع أكلنا وجبة الكسكس، وبعد الطعام ناديت الموظف وطلبت منه أن يسكب لي كأس من البيرة فقال لي: يمكن أن اجلب العصير فقط فالخمر نبيعه فقط للأجانب. أعلمته أنني أجنبي فأحضر لي كأس من البيرة. و بينما أنا أتلذذ بمشروبي حصل أمامي مشهد فيه عبرة رائعة بنظري حيث دخل علينا مجموعة من الشبان ومعهم شيخ بالسبعين من عمره تزينه ذقن طويلة بيضاء ووجه جميل وبشوش ،فسبقه أحد الشبان وأشار بيده علي وقال له: أنظر يا شيخي هؤلاء الكفرة لا يحترموننا ويشربون الخمر أمامنا دون احترام لعاداتنا.

نظر إليه الشيخ ووضع يده على كتف الشاب وقال له بصوت منخفض كنت من المحظوظين أنني سمعته: يا بني لو كنت أنت في بلادهم وأخذت تصلي بالشارع وأتى إليك أحدهم وقال لك لماذا تصلي بشوارعنا؟ ماذا كنت ستقول له، يا بني أنت لك دينك وهم لهم دينهم.

فأغمضت عيوني وأخذت نفسا عميقاً وقلت لنفسي يا أيها الناس كم بكم من حكماء وأصحاب ضمير، فيا ليت هذه العبارة تسمعها كل مخلوقات الأرض، أظن أنه لو سمعت هذه العبارة حتى الوحوش وفهمت معناها لأصبحت ترفض أن تأكل ضعفائها، ولو فهم البشر هذه العبارة لكان السلام يملأ الدنيا .

و في الوقت الذي كنت فيه مشغولاً بأفكاري عن ذلك الشيخ الجليل و بما تكلم به مع ذلك الشاب، رأيت شخصاً يقترب من طاولتي وفي يده ورقة تكاد أن تكون ممزقة ويرتدي ثياباً ممزقة ونتنة، فقلت لصديقي: ماذا يريد منا هذا النتن؟ قال: لا أدري...

مد صديقي يده باتجاهه وأخذ منه الورقة قرأها ثم قال لي: أنه مضطرٌ لأن يدفع للبلدية مبلغ خمس وسبعون درهم وإلا سيقطعون عن بيته المياه.

فقلت له: اصرفه عني وليأخذ من غيري فأنني لا أحترم هؤلاء المتسولين، فأجابني المتسول: يا سيد أنا لا أريد أن

أسكر أنا فقط أريد أن أدفع فاتورة الماء وإلا سيقطعون المياه عن بيتي. فقلت له: أنا لا أملك الدراهم، وأشرت له بأصبعي إلى الشيخ والشبان الذين معه ،وقلت له: اذهب إلى هؤلاء وهم سيدفعون لك المبلغ.

فذهب إلى الشيخ واتباعه وأصبح يكرر نفس الجمل أمامهم لأكثر من نصف ساعة و لكن دون أي جدوى.

علماً أن الشيخ الفقيه كان كل هذا الوقت يحدث الشبان في المطعم و كل من يسمعه عن الكرم والدين والإحسان.

أنا في الحقيقة وكما أسلفت لكم صحيح أنني صرفت المتسول عني ولكنني صرفته كي لا يحرجني أمام صديقي لأنني لا أحمل نقوداً ورقية بل أحمل الفيزا كارد، كما أنني بالفعل كنت حزيناً جداً على هذا المتسول وهو يصرخ ولا أحد يجيبه، لعلهم كانوا لا يملكون الدراهم أو أنهم مثلي يحملون الفيزا كارد.

قاسمت صديقي بما دار في خلدي فرد علي صديقي: أنا وأنت من لا نملك الدراهم هؤلاء أقل واحد فيهم يملك على

الأقل عشرة  هكتارات من الليمون وكل هكتار يغل سنويا ما لا يقل عن عشرين طن من الفاكهة يصدرهم إلى أوربا.

 بعد أن روى لي صديقي قصة هؤلاء الجشعين شعرت وكأنني أشبههم إلى حد ما فسريعا خطرت ببالي جيهان وقصة خداعي لها ، لا أدري متى سأتخلص من قصتي معها ، فكل يوم يحدث معي قصة تذكرني بها ، أريد أن أنساها ، ماذا أفعل لقد جئت مدينة أغادير تلك العروس الرائعة المتربعة على شواطئ الأطلسي لكي أنسى همومي ولكنني لا أعلم لماذا أشعر أن همومي ازدادت فيها كثيراً تنهدت قليلاً وودعت صديقي على أن نلتقي في وقت آخر.

قررت الذهاب إلى الفندق لأخذ قسطٍ من الراحة، فقد كنت منهكاً قليلا ولا أريد سوى النوم، ركبت سيارتي واتجهت نحو الفندق حيث أقيم وعندما وصلت الفندق ذهبت إلى الموظف وطلبت منه مفاتيح غرفتي، فقال لي: يا سيد

لقد نقلت لك حاجياتك وحقائبك إلى غرفة رائعة ومريحة تطل على الأطلسي من جميع أركانها.

فقلت له: شكراً أتعلم أنني نسيت أنني قد طلبت منك اليوم تغيير الغرفة.

قدمت له شكري مرة أخرى وأعطيته خمسين درهما تعبيرا له عن أسفي لما بدر مني معه بالصباح.

اتجهت نحوى غرفتي واستلقيت في سريري وغلبني سباتي إلى أول الليل فأستيقظت في الساعة الثانية عشرة ليلاً واتصلت بصديقي وتوجهنا معا إلى النادي الليلي لألتقي مع زجاجاتي التي كانت تنتظرني.

وصلنا أنا وصديقي النادي ورقصنا وشربنا ولكنني كنت طوال الوقت خائفاً ومرتبكاً فكنت أتوقع في أي لحظة أن أرى جيهان بالملهى، وأفكر كيف سأتصرف إذا لاقيتها لم تكن أحداث تلك الليلة كثيرة ولم أقبل بأي من العروض التي عرضت علي من النساء كي يذهبوا معي مقابل مبلغ من الدراهم، كان كل ما يشغل تفكيري هي

جيهان وماذا سأتصرف حين ألاقيها أما صديقي فقد سامر أحدى الفتيات وأخذها معه مقابل مائة وخمسون دولار وأنا بقيت على الكرسي لا يوجد بمخيلتي سوى صوتٍ أنثوي اقترب مني وطلب سيجارة، فقلت لها: آسف أنا لا أدخن، فقالت لي: لعلك تكذب أنا أعلم أنك تدخن، قالت هذه الجملة وانصرفت عني.

قلت في نفسي صوت هذه المرأة ليس غريب عني، لا أعلم أين سمعت هذا الصوت وأخذت أفكر وأعيد ذاكرتي ولكن دون جدوى.

توقفت حبال أفكاري عندما سمعت صوت رنين هاتفي باتصال من زوجتي، خرجت من أمام البار لأكلمها لأنني لا أستطيع أن أسمعها من صوت الموسيقى في قلب الصالة وتوجهت للخارج وبدأت الكلام مع زوجتي التي لعنت الساعة التي عرفتني فيها حيث أنني وعدت أباها أن أسأل له عن شيء ما بالمغرب وأنا و بصراحة قد نسيت ما أوصاني به لدرجة أنه غاب عن ذاكرتي أبداً ، وما زاد الطينة بلا ـ

كما يقولون ـ أنها سألتني متى سأعود من المغرب سأعود غداً يا حبيبتي، بالتأكيد لأنني أعلم أن عيد ميلادك بعد غد ويجب علي أن أكون.

فقالت لي: الظاهر يا حبيبي أن الخمر ونساء المغرب أنسوك يوم ميلادي فعيد ميلادي ليس بعد غد، عيد ميلادي بعد أربعة أيام من بعد غد، على كل الأحوال حبيبي أنا بانتظارك أرجو أن لا تتأخر.

أنهيت المكالمة وعدت إلى الصالة لأكمل سهرتي وأنتظر صديقي حتى يعود لا أعلم لماذا في تلك الليلة لم يدخل الخمر إلى رأسي على غير عادته.

وضعت يدي على وجهي وأنا أتأمل جدران الصالة وأنتظر صديقي حتى يعود، ها قد عاد صديقي فقلت له أخبرني هل كانت جلستك ممتعة؟ فقال لي: بالله عليك قم بنا لنسير ونخرج من هذا المكان اشعر بضيق التنفس وأنا بحاجة لهواء نقي .

فقلت: معك حق فأنا مثلك أريد أن أخرج من هذا المكان الخانق.

خرجنا معاً وكان الصمت غالباً علينا وبعد قليل طرح علي صديقي سؤالاً قائلاً : كم سنة مر على زواجك؟

- ما الذي خطر ببالك لسؤالك هذا؟
- لا أدري ولكن حتى لا يغلبنا الصمت.
- مر علي خمس سنوات حتى الآن لم أرى فيها يوماً سعيداً.
- تحبها؟
- لم أحب بالدنيا شيئاص أكثر من حبي لها إلا ولدي الذي أصبح عمره سنتين فهي حبي الأول وربما الأخير.
- وهي تبادلك نفس الحب ؟
- بصراحة يا صديقي أحيانا أشعر بأنها لم تكن يوما تحبني، وعندما أتذكر كم عانت وكم

وقفت بجانبي في ظروفي الصعبة فأقول لنفسي إنها تحبني حب لا نظير له.

تعلم يا صديقي بما أنك فتحت هذا الموضوع سأقص عليك قصتي مع زوجتي.

في يومٍ كنت ألعب مع فريقي كرة القدم وكما تعلم يا صديقي بأن كرة القدم هي أولى الاهتمامات بالنسبة لي قبل أن أرزق بولدي، حتى أصبحت مشهوراً وأسمي على كل لسان، في بذلك اليوم وبعد أن ربحنا المباراة النهائية واستعدينا للتتويج اصطف أعضاء فريقي وبدأت الجهة الرسمية بتتويجنا فتوج أعضاء فريقي وعندما وصل دوري للتتويج قال لي منظم المباراة انتظر لو سمحت بضع دقائق، وقفت والفرحة تملئ قلبي أمام الحضور وكأنني نابليون أمام جيشه، وبعد دقائق قليلة صعد عريف الحفل إلى المنصة وبارك لنا النصر وقال أن ملكة جمال المنطقة ستقوم بتتويج كابتن الفريق الذي هو أنا، فوقفت على منصة التتويج وأقبلت الجميلة باتجاهي فحنيت رأسي أمامها وهي تتوجني

لتضع في عنقي الميدالية وعندما انتهت من تتويجي وقبل أن تنزل يديها للأسفل رفعت رأسي براحتيها الرقيقتين وقبلتني، وقالت لي: مبارك لكم هذا الفوز مع أن الفريق المهزوم هو فريق بلدي.

حيث أن فريق بلدتها بقي متصدراً لهذه البطولة لأكثر من خمس سنوات متتالية، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقع فيها عيني على زوجتي .

ومن هنا بدء الصراع الذي لا ينتهي إلى يومنا هذا مع والدها وأهل بلدتها الذين سرقت منهم البطولة فبعد ما توجتني وقبلتني رفعت كأسي وقفزت عن المنصة وحملت مكبر الصوت وتوجهت إلى الجمهور وقلت شكرا لكم على هذا التكريم العظيم وهذه المفاجأة الرائعة ولكم منا مفاجأة من منظم الحفل سيحتفل الفريقان في مطعم(( سهراتي)) ويدعو كل المشاركين ودعوة خاصة إلى ملكة جمال المنطقة التي توجتني.

طبعا أعترف بأنني كنت متهوراً بتلك اللحظة وغضب مني الجميع لأن هذه الدعوى لم يكن يعلم فيها منظم الحفل وأوقعت الحسناء التي هي زوجتي في الوقت الحاضر بالحرج حيث لم أترك لها مجال لترفض الدعوى .

تقدمت نحوي وأخذت مني مكبر الصوت وكان الحرج والخجل واضحاً في صوتها وملامح وجهها، عندها شعرت بتهوري في تلك اللحظة، وكدت أرتجف من شدة الخوف من ردها علي وماذا من الممكن أن تقول أمام الحضور، لكن المفاجئة كانت بالنسبة لي أكبر من فرحتي بالفوز عندما سمعتها ترحب بدعوتي لها وتقول بأن ريع هذا الحفل سيكون لصالح الجمعيات الخيرية لمساعدة الأطفال بمناطق النزاعات الحربية حينها عرفت أن أبوها هو من كان ممول الحفل وصاحب المطعم الذي دعوت الحضور عليه ساعة تهوري .

تركت جمهوري وفريقي وتقدمت منها وقبلت يدها، فقالت لي: يا هذا لم أكن أريد أن أحرجك أمام جمهورك لأنني

أعلم أن هنالك أشخاص كانوا ينتظرون مني أن أحرجك، وكان هذا الموقف بالنسبة لهم في هذه اللحظة ككنزٍ ومع أنني سأتحمل نتائج بشعة مع أقرب الناس إلي وهو أبي ولكنني أحذرك من أن تلعب بالنار مرة أخرى.

فقلت لها: إن كنت أنت النار احرقيني .

- هل هذا الكلام تقوله لكل امرأة تراها.
- لا والله فما يوم خاطبت امرأة ولا يوم أسرت عيوني فتاة غيرك، وكأن القدر بعث بك إلي فأشعر أن قلبي ضاق بداخلي حتى لا يتسع سواك .

ابتسمت وقالت: استعد للحفل الذي دعاك له تهورك.

ثم أدارت ظهرها وانصرفت.

تجمع حشودٌ من الناس على المدخل وقام الصحفيون بإجراء مقابلات مع كلا الفريقين، وكان رجال الأمن لا يسمحون لأحد أن يقترب أكثر من خمسمائة متر من المنطقة التي خرجنا منها .

دخلنا ساحة المطعم الضخم وبانتظارنا عدد هائل من المستقبلين وجلسنا بالأماكن المخصصة لنا وبدأت مراسم الاحتفال والطعام والشراب والرقص وكان كل الموجودين مسرورين لهذا النصر، أما أنا يا صديقي فقد نسيت كل شيء وجلست ثابتاً بمكاني ساكناً دون حركة، إلا عيوني و التي كانت تراقب كل من في المطعم وكل من يدخل إليه لعل الحظ يسعفني وأرى ملكتي موجودة بين الحضور فلم أشعر بحلاوة النصر وعظمة هذا الاحتفال إذا لم تكن حاضرة.

وبينما كان فؤادي ينتقل بين الحضور باحثاً عنها، لاحظت جميع الحضور يتجهون مسرعين إلى مدخل الصالة حيث أن المطعم هو عبارة عن ساحة كبيرة بنيت عليها خيمة تتسع لحوالي خمسمائة طاولة كانت قد امتلأت بالحضور، وكنت أبحث عنها بعيني بين كل هؤلاء، وأخيراً و الحمد لله قد أتت ملكتي وأجبت دعائي يا رب.

شعرت أن ما يحصل معي ليس أمراً عادياً، تأكدت أنني أحبها نعم عشقتها من النظرة الأولى، أحببتها من أول لقاء عشقتها عيوني، فأسرعت من بين الحضور نحوها وفتحت باب السيارة وقلت لها أتسمحين لي أن أتبارك بلمسة يدك ولم أنتظر الرد بالموافقة أخذت يدها وقلت لها أهلاً وسهلاً بك يا سيدة الحضور ويا ملكة هذا الحفل، وبينما أنا مازلت أسير معها بالخطوات الأولى حتى رأيت شخصاً يأتي مسرعاً ويدفعني بيده على كتفي ويبعدني عنها ويمسك هو بيدها، ويقول لها: لماذا كل هذا التأخير يا سيدتي فنحن بانتظارك منذ زمن. ويكمل خطواته معها إلى المطعم بدلاً مني، فشعرت أنني أمام تحدي كبير شعرت قلبي يعاتبني ويقول يا هذا أنت لا تليق بالحب فهل لأحمق مثلك أن يعشق ويرضى أن يسلم من يحبها بهذه السهولة فجاوبت قلبي أثنائها وقلت له لا وحق السماء لن أسلمها لأحد غيرك يا أيها القلب المتيم فيها.

عدت إلى مكاني وبدأت أشرب الخمر وبدأت عروض الحفل بالاستعراض كان من العروض رقص الباليه وعزف الموسيقى وبعض العروض الرياضية المميزة، وكان كل الحضور مشغولين بما تقدمه تلك العروض وشرب الخمر، إلا أنا فكنت مشغولاً بملكتي وأراقبها عن بعد وعيوني لا تريد مفارقتها، نظرت إليها فشعرتها غير مرتاحة و كأن الجميع قد نسي وجودها، فقلت بداخلي تحرك يا هذا إن القدر يمنحك فرصة أخرى معها، تقدمت إليها وقلت لها :

لماذا ملكتنا حزينة وغير مرتاحة تفضلي واقبلي من يدي هذا الكأس من الشمبانيا، أنا يا ملكتي خادمك وهذا الكأس يتوسل إليك، فامسكيه بأصابعك الرقيقة واشربي ما بداخله من الشمبانيا لعلي وضعت فيه شيئا من روحي.

فقالت لي: ما بك تكلمني كلاماً من يسمعه يقول وكأنك تعرفني منذ زمن طويل.

جاوبتها: نعم يا ملكتي أنا أعرفك منذ قرون عدة وسأثبت لك أنني على حق، ما رأيك أنني أراك حزينة وقلقة.

- وما الذي أوحى لك بذلك.
- قلبي وعيونك، قلبي الذي ينبض بأنفاسك وعيونك التي فضحت حزنك.

وبينما أنا مستمتع بحديثي معها عاد ذلك اللعين من جديد وقال لها كنت أبحث عنك أين كنت لقد أتى والدي ووالدك ويريدونك حالاً.

اعتذرت ملكتي مني وذهبت مع ذلك اللعين ولكنني بالفعل يا صديقي كنت أشعر في نظراتها بكم كبير من الحزن في داخلها لدرجةٍ أحسسته أكبر من جمالها، كان لابد لي أن أطلب منها رقم هاتفها لأن التحدث إليها بحفل كهذا من المستحيل، وكانت هي بموقع اجتماعي رفيع المستوى قد لا يقبلني ذويها، وخاصة أنني عدو لفريقهم والذي كانوا يعتبرونه رمزاً من رموز عاداتهم وتقاليدهم، وهي أيضا تعتبر رمز من رموز بلدهم.

قاطعني صديقي وقال لي :

- ها أنت تسلب البطولة من فريقهم و الذي يعتبر رمزاً من رموزهم كما تقول، وتسلب ملكتهم منهم بنفس اليوم يا صديقي، فاحمد الله أنهم تركوك على قيد الحياة.
- كلامك صحيح ،لأن الصحف التي طبعت باليوم التالي كان جل اهتمامها جلوسي معها بالحفل، كان الصحفيون يلتقطون لنا الصور ونحن لا نشعر، كما و استهلت إحدى الصحف مقالاتها بعنوان (سارق البطولة يحاول الفوز أيضاً بالملكة) ولكنني يا صديقي كنت أعلم أنها ستكون من نصيبي كان بداخلي إحساس دائم يقول لي أنها لي .

و منذ هذه البطولة بدأت شهرتي وأصبح من الصعب علي أن أخرج أينما أشاء، حيث الصحفيون يترقبونني أينما كنت، فأسمي بعد تلك البطولة انتشر سريعاً وبمدة لا تتجاوز السنة ونصف السنة أصبح اسمي على كل لسان، وبما أننا لنا نوادينا ومطاعمنا الخاصة كنت لا أملك خلوةً بنفسي

بنفسي لشدة وكثرة المعجبين والمعجبات، كان في تلك الأثناء وقتي ضيقاً جداً وخاصةً بالوقت الذي كنت فيه أحضر نفسي لبطولة الدولة بالصيف القادم ، شاءت الأقدار وجمعتني بملكتي في إحدى نوادي التنس فيما كنت أزور هذا النادي حيث أن الدكتور مدير النادي هو من كان يهتم بالحركات الفيزيائية لقدمي حين كنت أقف بالممر أنتظر الطبيب ولم أكن اتوقع أبداً هذا اللقاء أو أنها ترتاد ذلك النادي نهائياً.

نظرت على بعد عشرين متراً أو أقل فرأيتها تمشي باتجاهي، وهي ترتدي لباساً رياضياً ، فرأيتها بأجمل صورة حيث كانت لا تضع على وجهها ما يسمى الماكياج، فكان جمالها طبيعياً يسرق الأبصار يا صديقي، رقص قلبي عندما رأيتها مقبلة علي من بعيد أراد أن يكسر ضلوعي ويخرج ليتربع بين يديها.

وقفت ثابتاً مكاني لا أتحرك وأصابني نفس الذهول والجمود الذي شعرت به حين كنت أنتظرها أثناء الحفل

الذي أقيم عندما ربحنا على فريق بلدتهم، وعندما أصبحت بقربي بادرتني التحية وأخذنا نمشي بالممر ونتحدث حتى أننا نسينا أنا وهي أين كنا سنذهب قبل لقائنا مع بعضنا ، فأنا نسيت موعد جلستي مع الطبيب وهي وكما أخبرتني أيضاً نسيت أن سائقها ينتظرها في الخارج، استمر حديثنا لأكثر من ساعتين، اتضح لي من خلال حديثي معها أنها كانت تقوم بأعمال خيرية لصالح الأطفال المنكوبين من جراء الحروب الدامية، ورأيت على شاشة تلفونها صوراً لها في الصومال والعراق فأدركت حينها أنها ليست فقط جميلة بالمظهر وإنما هي جميلة أيضا بالجوهر، فروت لي قصة مختصرة عن حياتها حيث قالت أن أمها توفيت وهي صغيرة وأبوها رفض الزواج من أي فتاة أخرى وفاء وولاء منه لأمها لشدة حبه لها مع أنه أحد أهم أثرياء المنطقة وله شهرة ويمثل الحزب الحاكم فيها ويملك محطة لتكرير البترول وأضافت لي بأنه يتدخل بحياتها كثيراً ويخاف عليها إلى حد لا يوصف وله رغبة أن يزوجها من ذلك الشاب الذي من

خلال كلامها عرفت أنه هو الذي سرقها مني بالحفل، و هو ابن محافظ المنطقة.

كانت سعادتي معها في تلك اللحظات لا توصف، شعرت وكأنني ملكت الدنيا، إلا أن الهاتف الملعون أوقظني من حلمي،و إذ بها أمي تتصل قائلة: يا ولدي أنني أشعر بألم يتعبني قليلاً و الضغط عندي مرتفع جداً، قلت لها: لا عليك يا أمي زمن الطريق وأكون بقربك.

عندها قالت لي جميلتي: أرجوك أن تطمئنني عليها هذا رقم هاتفي. فقلت لها: حسناً يا جميلتي ما رأيك أن تقبلي دعوتي غداً على الغداء؟ فقالت: بكل سرور. ودعتها وركبت سيارتي وتوجهت نحوى البيت لأطمئن على أمي وبأقصى سرعة ممكنة كنت قد وصلت فرأيت أمي تنقل بسيارة أحد الجيران إلى المستشفى ومعها ممرضتها الدائمة التي كان أسمها إيرينا .

لم يكن صديقي سيستمتع بسماع قصتي لولا أن الجو الرومانسي الذي كان يرسمه سكون الأطلسي وضوء

القمر الذي جعل من مياه المحيط مرآة له تعكس ضوئه لتجعل المنظر لوحة لا يمل من رؤيتها.

كان الهدوء يسيطر على المكان وكنا أنا وصديقي بحاجته بعد خروجنا من ضجيج الصالة أوقفت قصتي التي كنت أرويها عن زوجتي لصديقي هنا، لأن أمسيتي معه قاربت على الانتهاء بسبب الوقت الذي مر سريعاً وخصوصاً أن صديقي يستعد للسفر في الغد إلى مراكش حتى يرى أهله هناك.

ودعته وأوصلته بسيارتي إلى بيته واتجهت نحوى الفندق الذي أنزل فيه، وبعد أن وصلت غرفتي وبدأت أجهز نفسي للاستحمام نظرت إلى المرآة وكأنها ترسم شخصاً غيري ، رأيت صورة تلك الفتاة التي خدعتها أمامي مرة أخرى، لا أعلم لماذا تلك الفتاة لا تريد أن تتركني، فقد أتعبتني، وصرت أتسائل لماذا؟ هل لأن ليلتي معها لا تنسى ؟أم لأن ضميري لا يريد أن يسامحني على خداعي لها؟ لا أعلم ولكن في كلا الحالتين ضميري خصم لي، أولاً لأنني خنت

زوجتي معها وثانياً لأنني خدعتها ، فكانت أمي تقول لي يا بني كل شيء يمكن أن يعفو الضمير عنه إلا الخيانة والخداع، وأنا مارست مع زوجتي وجيهان الأمرين معا، الخيانة لزوجتي والخداع لجيهان، رحمك اللّٰه يا أمي الحبيبة وكأنك كنت تعلمين أنني سأقع في هاتين الخطيئتين، سامحيني يا أماه.

ومع ذكرى أمي قررت أن أنسى كل شيء وأخلد لنومي، لأنه ينتظرني غداً يوم صعب، وما أن دخلت باطن السبات حتى سمعت صوت المطر يهطل بالخارج ، أيقظني صوته وقررت أن أنظر من النافذة لأرى هل هناك مطرٌ بالفعل أم أن مساً من الجنون أصاب عقلي قبل أن أترك أغادير لتتخيل أذناي ذلك الصوت. نظرت من النافذة فرأيت السماء تهطل مطراً خفيفاً يروي التراب وزهور أغادير، فتوجهت إلى السماء وقلت الحمد للّٰه أنني رأيت السماء تمطر فلو لم تكن تمطر بعد سماعي صوت المطر لكنت سأجن حتماً.

طردت آلهة الشر من عقلي الباطن و أخلدت للنوم. استيقظت باكراً ونظرت من نافذتي إلى الجبل الذي تعلو فوقه بعض السحب، والتي أخذت تتصارع مع الشمس خلفها، فتطل الشمس من بين السحب لتبعث بأشعتها الدافئة القليلة إلى نافذتي التي أطل منها كل صباح ومساء أتأمل مياه الأطلسي، تذكرت حلمً راودني هذه الليلة وحاولت أن أحلل أحداثه في عقلي، فقد رأيت نفسي أميراً أمتطي جوادي وأتت فتاة وانحنت أمامي أربع مرات وفي كل مرة كانت تنهض كانت تقطف وردة وتعطيني إياها ، وكل مرة تكون الوردة بلون جديد ، والفتاة بشكل آخر، ظهرت تلك الفتاة واختفت.

قلت في نفسي لماذا لم أعد أرى أمي بأحلامي؟ لماذا بدلت أحلامي بأمي بتلك الأحلام المزعجة بعد تلك الليلة الملعونة مع جيهان لماذا؟ .

بدأت أصرخ في نفسي وأقول يا أيتها الآلهة أعيدي لي أمي بأحلامي أتوسل إليك، كانت دموعي تغطي وجهي من شدة

الحزن على أمي وبعد قليل طرق أحد موظفي الفندق باب الغرفة علي وقال بعد أن بادرني بالتحية:

- عفوا يا سيد فصديقك ينتظرك بالأسفل حتى يحتسي القهوة معك.
- حسنا سأنزل على الفور.

نزلت إلى صديقي وجلسنا على الطاولة وعيوننا تتأمل الأطلسي فكانت المياه على غير عادتها لونها أحمر، كأن أحدهم قد شق المحيط بعصا موسى وذبح بأعماقه كل اتباع فرعون، فناديت أحد الموجودين في الصالة وسألته عن سبب تلون المحيط بذلك اللون؟

فقال لي: أن طبيعة الأماكن حول الأطلسي و حتى التراب يغلب عليه اللون الأحمر ونتيجة الأمطار والتراب الذي تنقله الرياح إلى مياه الأطلسي تلونه بهذا اللون الجميل والغريب. وأضاف أن المغرب يغذي كل من أوربا وأمريكا و روسيا وكندا والصين حيث تعتمد كل هذه الدول في نسبة

كبيرة من مستورداتها من الخضار والفواكه على المغرب، هذا كله ناهيك عن الثروة السمكية.

فقلت له: كل هذا من المغرب فلماذا يكثر الفقراء فيه والمتسولون؟ فقال لي: لا أدري لماذا، ولكنهم يشترون منا الخضار والفاكهة بأرخص الأثمان ويبيعوننا الأسمدة بأغلى الأسعار، يعطون عمالنا القليل من الدراهم ويعطون موظفيهم آلاف الدولارات يبيعوننا آليات ترهق اقتصاد بلدنا ويوظفون عمالنا بأرخص الأثمان، ونحن شعب بسيط وغبي لم ندرك حتى الآن ما يخطط له الغرب في بلادنا العربية، وكل هذا من شدة جهلنا، فترانا نبني في كل قرية عشرة جوامع على الأقل وفي كل عشرة قرى نبني مدرسة أو اثنتين نعلم أطفالنا ركوب الدراجة قبل أن نعلمهم القراءة والكتابة، في كل سنة يموت العشرات من الطلاب تحت عجلات السيارات وهم يقطعون مسافة لا تقل عن العشرة كيلومترات سيراً على الأقدام ليصلوا إلى مدارسهم، ومع هذا العذاب كله نقدم أطباءً ومحامين ومفكرين، وبعد

هذا العذاب كله للمفارقة يعملون لصالح الغرب، أو تعلق شهاداتهم على الجدران وهم عاطلون عن العمل.

فقلت له: أرجوك اتركنا من حديث السياسة فنحن لا نفهم فيه، كنا نسألك فقط عن سبب لون المحيط على كل حال شكراً لك على هذه المعلومات القيمة .

ذهبت ذكرياتي في أثناء حديث هذا الرجل إلى يوم دخلت فيه مطعماً في أغادير كنت قد اعتدت الذهاب إليه، عندما صعدت درج المطعم متجها إلى الطابق العلوي و الذي هو مفروش ببعض الكراسي الأنيقة وسندات الظهر، حيث تشعر عندما تدخل إليه وكأنك تدخل منزلاً أنيقاً، فكان هذا المكان بالنسبة لي هو مكان للراحة والاسترخاء، نظرت إلى الصالة فرأيتها فارغة على غير عادتها، تقدمت باتجاهي فتاة جميلة وسألتني ماذا أريد؟

فقلت لها: لماذا مطعمكم فارغ من الزبائن على غير عادته؟

فقالت لي: يا سيد في هذا الوقت يكون معظم الناس في الجوامع لقضاء فريضة الصلاة والدعاء لله عز وجل .

فقلت لها: حسنا يا صديقتي هل من الممكن أن تحضري لي كوباً من الشاي ريثما يعمر المكان بالحضور ،فأنني لا أستطيع تناول وجبتي من الغذاء وحدي، فهذه عادة ورثتها عن أمي.

فقالت لي: حسنا.

ذهبت وأحضرت لي الشاي، حاولت أن أكثر عليها من الأسئلة، وبصراحة كنت أريد أن أتكلم معها لأضيع بعض الوقت، بدأت حديثي معها بجزء بسيط عن حياتي، من أين أنا وكيف تعلمت اللغة العربية، اندمجت معي بالحديث فجلست على الكرسي وحكت لي القليل من قصتها، تذكرت قصتها الآن بعد حديث هذا الرجل عن المغرب و معاناة شعبها، قالت لي أن عمرها سبعة وعشرين عام ولها شقيقتان وأخ أكبر تولى مسؤولية تربيتهم بعد وفاة والدهم، أكملت حديثها بأن أختها الكبيرة تزوجت من كاتب عدل في المحكمة الجنائية تعرفت عليه بالجامعة حيث كانت تدرس علم الاجتماع، وأختها الثانية تزوجت محاسباً في

وزارة الاقتصاد أيضا تعرفت عليه في الجامعة حيث كانت معه بنفس الكلية والأخ الأكبر يعمل في الزراعة ويصدر منتجاته إلى الخارج وهو رب الأسرة بعدما توفي الأب. و عندما كانت تدرس بالصف الخامس أوقفها أخوها الأكبر عن الدراسة وقال لها اجلسي في البيت فأنا لا أملك النقود لأكمل لك تعليمك فكلها ست أو سبع سنوات ويأتي نصيبك فكانت هي الضحية من بين أخواتها ،كانت مسألة عدم اكمالها لتعليمها نتيجة هذه الظروف أكبر فشل بالنسبة لها ، فلولا ظروفها المادية الضيقة والفقر الذي تعيش فيه لكان من الممكن أن يكون لها شأن عظيم، ومع هذا الحزن الذي كان يرافقها وهي تروي لي حكايتها إلا أنها كانت ترسم على وجهها بسمة مخلوطة بأقحوان يعزفه الفؤاد على ما رسم له دهرها من أحزان، فكانت تلك الفتاة إحدى ضحايا الفقر والحرمان بالمغرب .

كانت حدائق سليمان مليئة بالورد والأشجار التي تحاكي السماء ولقد تنوعت بأشكالها فها هي شجرة التفاح تحمل بين أوراقها ألوان الربيع الأخضر والأحمر والأصفر، وشجرة الليمون لبست فستانها المزين بالعناقيد البرتقالية، والأرض فرشت لنفسها وسادة من ريش النعام وجعلت من زغردة العصافير أغنية تطرب آذان ذالك الطفل الذي يلعب في بساتينها ويمزق أوراق الزهور التي تسقط من يده، وتبعث صرخات من عطرها تقول تحبني أم لا تحبني، ثم يستلقي على ظهره وينظر إلى السماء يتأمل صفائها ويداعب نسيمها شعره الأشقر فترى عيناه بأفق السماء ناقة يمتطيها فارس وحسامه يلمع بيده كبرق السماء ومعه امرأة وكأنها أخذت جمالها من نور الشمس وأرسلت للأرض لتري ابن آدم أبرع وأبدع ما خلق الله وما أن رآها ذلك الطفل استوطن الحب والسرور في قلبه فترك الزهور التي كان يمزق أوراقها ومد ذراعيه الصغيرتين باتجاه السماء وأخذ يقول يا أيها الرجل يا من معك الناقة، من تلك الجميلة الرائعة التي معك أشعر

أنني أعرفها فتوجهت هذه المرأة إلى الصبي وقالت له: يا بني أنا أمك التي حملتك بأحشائي وأرضعتك حناني حتى أصبحت رجلا فرحلت عنك لألاقي موعدي الذي انتظره أبوك ثلاثون عام فهذا من يمتطي الناقة هو والدك الذي رحل عني وعنك منذ الشهور الأولى من ولادتك والآن أريد الرحيل .

ركبت ظهر الناقة ومشت ،قال لها الطفل قفي يا أماه انتظريني أرجوك لا ترحلي وتتركيني مرة أخرى أمي يا غاليتي لم أعرف الأمان منذ رحلت يا أمي أنا بوجودك أملك كل شيء كنت الملك والأمير، أملك القصور وتهنئ حياتي أجمل الأميرات، بوجودك خلت من الأشواك ورودي ورحلت الغيوم من سمائي، أرجوك يا أمي لا ترحلي عني منذ رحلت أصبحت أتسول الحنان من صدور الأمهات، أظلمت سمائي في النهار ورحلت عني شمس الصيف، أمي أرجوك عودي أمي لا أريد أن أعيش رحيلك بعد أن عدت. فنظرت الأم لطفلها وقالت يا ولدي لقد قدر الله وما شاء فعل هذه إرادة

اللّه فأنا حملتك وأنت حملتني وأنا تألمت عند ولادتك وأنت تتألم عند رحيلي ها أنت أصبحت رجل قوياً تستطيع أن تتحمل أعباء الحياة و لم تعد بحاجة لوجودي.

أمي صرخ الطفل من جديد لا يا أمي لا تسقيني أسى الرحيل من جديد فأنا لم أكبر أنا مازلت طفلاً بحاجة لكِ أماه يا أماه أين اختفيت ....أين ذهبت بأمي يا أيها الرجل اللعين؟ أعدها إلي يا أيها السارق أنت لست أبي فأنا لا أعرفك فقد تخليت عني وأنا صغير وها أنت الآن تسرق أمي لتتركني وحيداً لست أنت من تكلمت لي أمي عنك، أمي قالت لي أن من سيأتي ليأخذها هو فارس نبيل يمتطي جواد أبيض وقالت أنه شخص كريم ويساعد كل من طلب منه مساعدة، قالت لي أنه يحبني وكان يقول لها أنها عندما تلدني سيدللني ويلاعبني ويساعدني ولن يسمح للحزن أن يملك قلبي، أنا متأكد أنك لست أبي فكيف تبدل جوادك الأبيض بناقة سوداء وكيف سرقت أمي مني وهي كانت تقول لي بأنك شخص أمين، وها أنا أطلب منك مساعدتي

بأن تعيد لي أمي ولم تفعل مع أنها قالت لي بأنك تساعد كل من يحتاجك وقالت بأنك ستدللني وتلاعبني وها أنت تتلذذ بدموعي انصرف عني يا أيها السارق لا أريد أن أراك فأنت محال أن تكون أبي الذي حكت لي أمي عنه. فخفض الطفل يداه والدموع تغسل وجهه الجميل فشعر بيدين حنونة دافئة يد تمسك بيده ويد أخرى تمسح له دموعه وتقول له أن هذه المرأة التي رأيتها هي ابنتي وعليك أن تجدها أخبرتني أمك أنك أنت المخلص الوحيد، نظر الطفل لها وقال يا ألهي هذه جيهان التي تتعب ضميري ولا تريد مفارقتي وهذا الطفل هو أنا كفى أريد أن أستيقظ. ....انتفضت من كابوسي ووسادتي مبللة من دموع عيني وتوجهت إلى نافذة غرفتي ونظرت إلى شاطئ المحيط وأنا يائس من الحياة في تلك اللحظات كان أله الفجر قد أعلن هجومه المستمر على أله الظلمة،قائلاً له أخرج فمهما كان عتمك دامساً فلا بد لنور الغد أن يمحوك، فلون الدم الذي لون سطح المحيط كان يدل على أن أله الفجر طعن أله

العتمة سكيناً وهذا دمه تنقله السماء وترميه في البحر لتطل الشمس التي لا تغيب وأخيراً دفن أله الليل في طيات أشعة الشمس التي بدأت تبهر عيني وتنور ذاكرتي.

كانت تلك السحابة التي يمتطي ظهرها الإله تزرع في داخلي شكوكاً وهواجساً تقول لي أنني أعيش عالماً خيالياً من السحر، وخاصة أنني أتجول في بلد كثر فيه خبراء السحر والشعوذة فتذكرت أنني دخلت دكاناً في إحدى الأسواق المغربية فرأيت عنده جلد الثعبان والجدي وبعض أوراق الخروب وضفدع ميت وشعر من ذنب الجحش فقال لي صاحب هذه الدكان عندما سألته عن مهمة هذه الأشياء ولماذا يستعملونها بالمغرب، أنه بإمكانه بهذه الأشياء من أن يجعل من هذا الجلد الصدفي للثعبان بعد أن أعطيه صورة أي شخص وأسمه بساط ريح مهما كان بعيدا عني، ومن شعر ذنب الجحش سوطا يجلده كلما خفف المسير إلي ويضع فيه رائحة كرائحة الضفدع الميت مادام بعيدا عني وأتى لي بمسحوق غريب اللون قال لي هذا خليط من أثر

الغار والخنفساء ليبقى عدوي مختبئ في جحره ما دام لا يحبني، أخذت شفتاي تعصر الشاي المغربي من كأسي الذي كان قد سقاني إياه البائع المغربي فلا أعلم بأي سرعة شربت كوب الشاي لقد أخافني هذا البائع وتلك الأشياء الغريبة التي يبعها، فأنا عقلي لا يتحمل هذا النوع من البشر، يا ألهي لقد عادت إلي جيهان مرة أخرى، لقد تعبت، لماذا لا أرحل إلى بلدي وأنتهي من هذا الكابوس الذي أضنى أفكاري وأرهق جسدي، سأعود إلى بيتي فزوجتي الجميلة الصعبة الطباع بانتظاري وولدي الغالي مكسيم كم اشتقت إليه، سأذهب إلى مكتب السفر لأحدد موعد عودتي إلى بلدي هذا قراري الأخير ولن أتراجع عنه .

لا أعلم لماذا ارتسمت على وجهي بتلك اللحظات ابتسامة خبيثة ؟ ربما رسمها على وجهي عقلي الباطن الذي أثقله التعب والهموم بعد رحلة الكوابيس هذه، نظرت عيوني بتمعن إلى الأطلسي وهي تذرف الدموع و لساني الأبكم يقول: يا خالق هذا المحيط أعد لي أمي، أعد لي ملائكتها

تؤنسني، يا أمي ما عرفت الخوف يوماً إلا بعد رحيلك، أصبحت أرى بعيوني كل البشر ذئاباً تريد أن تفترسني وأنا ضعيف القوى، جبان في وحدتي، أمي أعيدي لي قوتي وثقتي بنفسي التي رحلت مني منذ رحلت.

عذراً أمي حبك لي علمني أن أكون أنانياً في حبي لك فلا أملك في الدنيا سواك، أمي أعطني من سناء جنتك ملاكاً يؤنس وحدتي، صدقيني لولا وصيتك لي أن قتل النفس جريمة بشعة بحق الرب لكنت قتلت نفسي، لكنني أخاف أن لا يدخلني ربي جنته وأن لا ألتقي بك فتزداد همومك ويتعبك خجلك أمام الخالق على فعلتي هذه، قلت لي بأن الخالق يحبك ..

أوقفت التأمل وبدأت أجهز نفسي من أجل العودة إلى بلدي بعد أن حضرت حقيبتي وأنهيت إجراءات تسليم الغرفة بالفندق الذي أنزل فيه ، أوقفت تكسي وطلبت منه أن يتوجه بصحبتي إلى شركة المغرب للطيران، وها هو العلم الأحمر الذي تتوسطه النجمة الخماسية وعلى جانبه هيكل

الطائرة وقد كتب عليها الخطوط الملكية المغربية وعند باب المبنى وقف شاب وسيم أخبرته بالإنكليزية أنني أريد تذكرة.

أعطاني رقم دوري الإلكتروني وكان رقمي الخامس والعشرون، نظرت إلى الشاشة كان الدور يشير إلى الرقم أربعة هذا يعني أن هناك وقت حتى أصل إلى دوري، فقال لي الشاب الذي أعطاني رقمي الإلكتروني أن لا أكون على عجالة من أمري وأن أعود بعد فرصة الغذاء، وهذا ما قد فعلته، عدت في تمام الساعة الثالثة إلا عشر دقائق فكان دوري قد حان .

دخلت إلى مكتب الطيران ووقفت أمام نافذة الحجز .كانت أمامي فتاة جميلة وأنيقة، نظرت إلى جواز سفري قليلاً ثم أعتذرت مني وقالت: آسفة يا سيد لا يوجد عندي تذاكر بهذا الوقت يمكنك أن تأتي إلي بعد ساعتين فأكون قد حجزت لك تذكرة.

كانت بغاية اللباقة بكلامها معي، .شكرتها وتوجهت إلى مطعمٍ مشهورٍ في مركز المدينة، حيث كان يعج بالأجانب والحوريات الغربيات اللواتي هن بنظري من أجمل النساء في العالم، كان معظم الأجانب يقضون أوقاتهم فيه.

كان هذا المكان بالنسبة للكثير من الشباب والفتيات المغربيات له أهمية خاصة، حيث كانوا يحلمون أن يتعرفوا به على أي شخص أجنبي بغرض أن يسافر بهم إلى أوربا، مع أنني أستغرب جداً من هؤلاء الأشخاص لماذا يسعون لترك هذا البلد الجميل، فأنا بالنسبة لي، لولا أسرتي ورياضتي مرتبطة ببلدي، لكنت أرغب أن أعيش كل حياتي بهذا البلد الرائع لما يمتلك من مناخ جميل وطبيعة خلابة .

أثناء تواجدي في هذا المكان وأنا أتوجه إلى طاولتي رأيت فتاة وبصحبتها صديقها، سمعتني وأنا أطلب فنجان من القهوة.. قالت لي أنها مغربية ومقيمة في فرنسا و سألتني من أي بلاد أنا، فقلت لها أنا عربي وأمي أجنبية، كانت تلك الفتاة جالسةً أمامي على الطاولة المجاورة، فلاحظت الفرق

بين فتياتنا وفتيات هذا البلد، أن الفتيات في المغرب يهوون الحياة الاجتماعية فقد تتحدث الفتاة مع الشاب طوال النهار و من الممكن أن تخرج معه وكأن شيء لم يكن.

شعرت بقوة شخصية الفتيات في هذا البلد، وكم يتمتعون بجمال وذكاء، أما في بلدي فقد يضنيك الكلام حتى تقنع فتاة أن تجالسك مقعدك، وعندما تجالسها لا تشعر بأنك تجالس امرأة، ومن الممكن حتى أن تندم بعد مجالستها، طبعاً هذا ليس قاعدةً و لكنه ما يحدث غالباً، أما في المغرب فيكفيك أن تبدأ بالسلام حتى تشعر بأنك تعرف من بادرتها السلام منذ زمن بعيد، فلا ترغب بعدها أن ينتهي لقائك معها ..

المهم كان النهار مشمساً والحرارة عالية، بينما كان الجو في بلدي عكس ذلك، كانت الثلوج تتساقط، سألتني تلك الفتاة التي تجالسني: أيعجبك جو أغادير؟ فقلت لها: نعم يعجبني كل شيء في هذه المدينة، فقالت: والفتيات هل يعجبونك أيضا؟ فضحكت ونظرت إليها وقلت: أعجبتني

امرأة واحدة خبأت كل نساء أغادير وراء ظهرها ، فقالت لي بصوت فيه تعجب: كم هي جميلة تلك الفتاة أين رأيتها هنا في المغرب؟ فقلت لها : نعم وهي بهذه اللحظة تسكن في عيوني، فقالت: لي تقصدني أنا؟ شكرا لك على المجاملة.

أخذ الحديث يدور بيننا ، وكأننا لم نتعرف سوى منذ برهة قصيرة، سألتني هل أنت متزوج فقلت نعم متزوج وعندي طفل يشبه الملائكة وأسمه مكسيم، فقالت لي: وكم عمره؟ فقلت لها : عمره سنتان.

أكثرت من الأسئلة عن تفاصيل حياتي، .سألتني أيضاً كم عمر زوجتي، فقلت لها: أربع وعشرون عام، فقالت: أهي جميلة؟ فقلت لها : نعم أنها صاحبة لقب ملكة جمال مقاطعة في بلدي.

.بعد قليل وأثناء حديثي معها دخل شخص فرنسي، تكلم معها بعض الكلمات الفرنسية، فنظرت إلي وقالت: هذا زوجي يخبرني بأننا يجب أن نذهب، سررت بمعرفتك مع السلامة.

ذهبت تلك الفتاة التي كانت تؤنسني وتركتني مع ذكرياتي عن زوجتي و عن تلك الليالي الجميلة التي قضيتها معها، و التي لم ينغصها سوى تدخل أبيها في حياتنا الخاصة.

تذكرت من جديد ذلك اليوم الذي جائني فيه الاتصال من أمي أنها مريضة، بينما كنت مع جميلتي عندما أعطتني رقم هاتفها لأتصل بها وأحدد موعداً للقائها، كانت الساعات بعدما تركتها تمر ثقيلة، كنت أنتظر موعدها بلهفة، لم أعد أعلم ماذا سأفعل حتى يمضي الوقت وتأتي ساعة لقائي معها، لم أنم و لم تغمض جفوني وأنا أنتظر لقائي معها .

وفي اليوم التالي التقيت معها أمام المطعم، أتت إلي وكأنها رمت كبريائها وراء ظهرها، اقتربت مني والخجل يبدو في عيونها، كانت تدنو مني وكلما اقتربت خطوة يخرج قلبي من مكانه ويعود لترجع الحياة إلي.

لمست يدها فشعرت أنني ملكت الدنيا بأسرها فكانت يدي لا تريد أن تترك يدها وعيوني كادت أن تفترس عيونها ، أخذت يدها ودخلنا قاعة المطعم وجلسنا على طاولة تطل على حديقة مدينتنا الرائعة التي يقسمها جدول صغير يسبح على سطحه المئات من طيور البط الأبيض، شاهدنا على ضفته مقعداً خشبياً صغيراً يجلس فوقه شاب وفتاة لم يتجاوزا السابعة عشرة من العمر ،كانت الفتاة تلقي رأسها على صدره وتحمل بيدها وردة جميلة، وكان الفتى يحاول أن يلمس كتفها بحذر وكأنه يحاول أن يطرد فراشة تحوم حولها، وما أن يلمسها حتى تنظر إليه الفتاة بعيون تبتسم وكأنها تشكره وتخبئ في صمتها أجمل كلمات الحب. كانت جميلتي فكتوريا تتأمل هذا المشهد بصمت فتنظر إلي وتبتسم ابتسامة الكبير للصغار .

كنا ننظر وكأن لسان حالنا يقول أننا نتمنى أن نكون مكانهما ، حينها قررت أن أبدأ الكلام وسألتها :

- هل سبق لك وأن واعدت أحد الأشخاص ولم تأت إلى الموعد؟
- لم أعرف يوماً في حياتي موعداً مع أحد، ولم يدخل قلبي أحد، كان كل همي دراستي وثقافتي التي كان والدي يركز عليها كثيراً.
- وماذا تفعلين بعد الدراسة؟
- سيارة والدي كانت ترافقني إلى باب المدرسة وتعود إليها عند انتهاء الدوام، لأعود إلى البيت ومن ثم إلى مدرسة الفولكلور وفي بعض الأحيان ملعب التنس ثم العودة للمنزل أتناول وجبة العشاء مع والدي ثم إلى النوم وهكذا أواصل حياتي .
- غريب كيف وصلتي إلى ما أنتِ فيه من شهرة وأنتِ محاصرة في وقتك كل هذا الحصار .
- أبي فقد أمي بسببي، فهي عاندت القدر مع أن الأطباء قد حذروها من الحمل نتيجة خللٍ في جسمها، ومع أن أبي كما كان يقول لي عارض

هذا الحمل ولم يرد منها أولاداً، ولكنها ولشدة حبها له غافلته وقررت أن تأتي بي لهذه الدنيا، فولدتني إلى الحياة ورحلت هي، ومنذ ذلك الوقت وأبي مضرب عن الزواج وتفرغ تماماً لتربيتي، ورفض الزواج حتى هذا الوقت على الرغم من محاولتي معه أكثر من مرة للزواج، حتى أنني في إحدى المرات وفي عيد ميلادي أحرجته لكي يرقص مع أم صديق لي، وكنت على اتفاق معها من دون علمه، تصور أنه رقص معها وسهرنا طوال الليل معها وقمنا بتوصيلها إلى بيتها وعندما عدنا إلى البيت حاولت أن أجره بالكلام وقلت له: لقد كانت السهرة جميلة أليس كذلك يا والدي ،فقال: نعم جداً جميلة، فقلت له: وما رأيك بالخالة تانيا إنها أيضاً جميلة فأنني أشعر وكأنها أمي.

فما كان منه إلا أنه ضمني إلى صدره وقال لي وكأنه يفهم مقصدي: يا بنيتي لسوء حظك أنك لم

تري من كانت أمك ولسوء حظي رحلت عني باكراً، أنها كانت من أجمل نساء الكون، لقد مات جسدها ولكن روحها لم تفارقني لحظة وأريد منك يا بنيتي بأن لا تعودي لتحدثيني عن هذا الأمر، فأنني أنتظر كل ساعة أراك فيها تكبرين أمامي وأرى أحفادي وأرحل هادئ الروح لألاقي حبيبتي أمك في جنة العشاق، فيقال أن أله الحب صنع حديقة جميلة يعيش فيها أوفياء الحب وأمك تنتظرني هناك، كان يتكلم معي وهو يبكي كالطفل، شعرت بأنني لن أتزوج حتى ألقى من يحبني مثل حب أبي لأمي ووفاؤه لها، كنا أنا وأبي كل سنة نذهب إلى قبر أمي لأنه يوم ميلادي يكون ذكرى وفاتها الحزينة ..

كانت فكتوريا تكلمني وكأن الدمعة تريد أن تهرب من وجهها الجميل فقلت لها :

- اعذريني  لم أكن أعلم أن في سؤالي ألمٌ لك، خيلَ لي أن الجميلات لا يعرفن الحزن وكل ساعات حياتهن  جميلة مثلهن.
- أن كل حياتي جميلة لولا أن والدي حزين، وأني أتيت إلى الدنيا وأنا لا أعرف أمي.

استمر الحديث بيننا فأضافت بأنها لا تعرف لماذا تكلمني، وكيف خرج الكلام منها، فهذه هي المرة الوحيدة التي تتكلم مع أحدٍ بقصتها، شعرت في هذه اللحظة أنني أريد أن أعانقها، وأنها بحاجة إلى من تنام على صدره وتعانقه، وكنت أحلم وأنا معها بأنني أعانقها لولا هاتفي الملعون الذي مزق كل شيء حيث طلب مني طبيب أمي أن آتي إليه لأمر ضروري يخص أمي ..

اعتذرت منها لما  يجب أن أقوم به اتجاه أمي حيث أن الطبيب يريد أن يتكلم معي لأمر عاجل، وعرضت عليها أن أقوم بتوصيلها حيث تشاء، فقالت أن سائقها ينتظرها بالسيارة ولا حاجه لها بأن أوصلها خرجت من المطعم ومشيت

معها حيث تقف سيارتها وقبلت يدها، أسرعت إلى المستشفى حيث كانت خالتي يوليا بإنتظاري والدمعة تتحصر في عينيها .

قالت خالتي: إن وضعها حرج وهي الآن في العناية المشددة، دخلت غرفة الطبيب وهو صديقٌ قديمٌ لي منذ أيام الدراسة، وكان أيضاً صاحب شهرةٍ كبيرة حيث استطاع اكتشاف مرضٍ من النادر اكتشافه .

فقلت له: ماذا جرى أيها الصديق فأمي لا تشكو من شيء سوى الضغط الذي يعلو ويهبط؟، فقال لي: إن السبب الذي جعل الضغط غير مستقر هو خثرة بالدم توقفت في قدمها اليسرى والخوف من أن تتوقف في منطقة حساسة و عندها ستكون الكارثة.

علمت حينها أن الوضع حرجٌ جداً دخلت معه غرفة أمي حيث كانت نائمة، فقال الطبيب: يجب أن نعطيها منومات من أجل الهدوء وغداً سنحاول إبقاء ضغط الدم في أدنى مستوى لذا أبقوا هادئين وادعوا لها بالشفاء.

خرج الطبيب وبقيت أنا مع أمي، مسكت بيدها وقبلتها ونمت بجانبها حيث أرهقني التعب فلا أجد الجواب لسؤالي لما يعاندني القدر فيجبل فرحي بدموعي .

خرجت إلى الشرفة أنظر إلى غروب الشمس وأشكو همي للّه متوسلاً إليه طالباً منه أن يشفي أمي ويعافيها ، أخذت أبكي كالعصفور الجريح لا أعرف بما أفكر، تخيلت فكتوريا كيف ستدخل بيتها وتخلع معطفها وتنام على فراشها وتطفئ النور في غرفتها ثم تغمض عيونها ، وأبقى أنا وراء شباكها أنتظر الصباح لفتح ستائر غرفتها فأغني لها أغنية من أغاني فيروز، وأضع لها باقة من الزهور على طاولتها خلسة، منتظراً إياها حتى تصحو فأغذي نظري بملامح وجهها الجميل .

غسلت وجهي وعدت لجانب أمي وقلت لنفسي: ما هذا أنه لضياع يمزق تفكيري، عفواً أمي ما أن عرفت فكتوريا حتى أصبحت أنساك فلن أسمح لأحد كائن من كان أن ينسيني إياك فكتوريا كانت أم سواها كل ما يهمني هو

أن أراك أمامي واقفة أسرق منك قوتي وألجئ إلى حضنك الحنون كلما ضاقت بي حدود الدنيا .

كنت أصرخ هذه الصرخات في صمتي، كانت لهيباً يحرق قلبي وسكيناً تغرز في حنجرتي، ودموع عيني تفيض من مآقيها دون توقف . لولا صوت أمي سمعته يناديني:

- يا ولدي هل تسمعني؟.

هرعت إليها مسرعا فقلت لها:

نعم يا أمي أنني أسمعك فأنا أنتظر وأشعر بهمسات صوتك يا غالية.

- حدثتني يوليا أنك كنت مع إحدى الفتيات بحفلة غداء.
- نعم يا أماه ولكن لا تشغلي بالك بالحديث الآن هذا يرهقك كل ما يهمني هو أن أراك أمامي تزيني حياتي .
- حدثني عنها يا ولدي هل هي جميلة .

- إنها جميلة ورائعة يا أمي خجولة متواضعة شكلها يرسل إلى القلب الطمأنينة وقلبها لا يعرف إلا الحب ولسانها لا ينطق غير الصدق، كما أنها تمتلك حياءً في وجهها يدل على تربيتها الصالحة مع أنها فقدت أمها يوم ميلادها وقام والدها برعايتها.

فقالت لي أمي بصوت ضعيف وكأنها تجبره على الكلام:

هل أحببتها يا ولدي؟

فقلت: نعم يا أمي أنني أحببتها من النظرة الأولى ولم أكن يوماً مؤمناً بهذا النوع من الحب ولكنني بالفعل أحببتها من النظرة الأولى.

- وهي يا ولدي هل شعرت بأنها تحبك ؟.

- أخاف أن أفكر بهذا يا أمي لأنك مرة قلت لي بأن الله يرسل إلى أبنائه أجمل الحوريات فمنهم من يكون محظوظاً ويسعد مع إحداهن ومنهم من تمر الحورية من أمامه وترحل عنه ويعيش الباقي من عمره في حسرتها.

نظرت أمي إلي وعلى شفاهها بسمة جميلة وقالت لي:

الحمد لله يا ولدي أنني أتممت مهمتي في تربيتك حتى رأيتك شاباً تحب وتعشق وتفهم معنى الحياة جيداً

فقلت لها: أمي لماذا هذا الكلام أنني لا أفهمك؟

فقالت لي: يا ولدي إن صفات فكتوريا هي من كنت أنتظرها لك فكن أهلاً لها ولقلبها وكن الفائز بها فلو خسرتها يا ولدي فلن تعوضها مرة أخرى.

فجاوبتها متوسلاً: أرجوك يا أمي لا تكلميني بهذه الطريقة بدأت أقلق عليك.

فقالت لي: لا تقلق يا ولدي فهذه سنة الكون وما على العبد سوى الرضا بالقدر والمصير، في يوم من الأيام حلمت حلماً بأنني أكلم أبوك وأطلب منه أن أذهب إليه رأيته ينظر إلي من بعيد ويقول لي بصوت عالي، قفي مكانك لا تتبعيني قبل أن تكملي وصيتي بتربية طفلنا، رمى لي دمية صغيرة وقال لي هذه وصيتي لك قومي برعايتها ومن ثم أنا بانتظارك، أدركت ساعتها بأن هذه الدمية التي رمى بها

إلي هي أنت يا ولدي وها أنا أكملت الوصية ولم تعد دميتي الجميلة بحاجتي .

- لا يا أمي لا تقولي هذا فأنا بحاجتك في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى كوني قوية يا أمي من أجلي أرجوك.
- يا ولدي لكل منا دوره ومصيره ودورنا قد انتهى وحان الآن دوركم أنتم كي تكملوا مسيرة الحياة بدلاً منا ..

دخل الأطباء غرفة أمي بعد أن أرسل جهاز المراقبة إشارة عن استياء الوضع الصحي لأمي وطلبوا مني الخروج من الغرفة لإجراء بعض الفحوصات اللازمة خرجت من الغرفة وأنا أدعو لها بالشفاء وعودتها لي سالمة معافاة ....

مضى الوقت يجرفه موج المحيط الهادئ، لا أعلم لماذا كل هذا الوقت، و كل ما يجري من حولي، يجعلني أتذكر المرحومة أمي وأتذكر حبيبتي زوجتي التي تكاد أن ترحل

عني في أي لحظة وتذهب ذاكرتي أيضا إلى أبي وكل هذه الذكريات المؤلمة لا تغيب عن مخيلتي ولا لحظة.

تلك المرأة التي اسمها جيهان و التي عرفت من خلالها أول مرة أن أخون زوجتي وتجاهلت العهد الذي قطعته على نفسي أمام الرب والحشد الحضور في الكنيسة في حفل زفافي، بين أصدقائي والمعجبين بكرتي، كنت أرى عيونهم تخاطبني بالغيرة والحسد على نعمتي التي خصني الله بها دون غيري، فكل هؤلاء يشهدون على قسمي لها بأنني لن أخونها مدى الحياة، حتى أنني أخجل من الزهور التي كانت أيضا حاضرة على قسمي فأنني أشعر أنها تنظر إلي وتخاطبني أيضا وتعاتبني ويحك يا هذا لقد خنت الأمانة مرتين بمرة واحدة ..

وما أن قد انتهيت من خيالاتي وذكرياتي نظرت فوجدت نفسي أمام مكتب الطيران الذي كنت على موعدي معه بعد ساعتين دخلت المكتب فرأيته قد ازدحم بالمنتظرين .فقلت لنفسي لماذا مكتوب علي أن أقف طويلا بالدور أنني

لا أحب الانتظار، على كل حال لا هروب من المكتوب، توجهت إلى الحارس وطلبت منه رقم دوري الإلكتروني بعد أن شرحت له بأنني كنت أحجز بمكتبهم منذ الصباح، فقال لي: لا يهمك فلا تدري ما ينتظرك بالحياة فاليوم أتت امرأة لتحجز تذكرة فلم يكفيها المبلغ الموجود معها فتوجهت لتسحب من البنك بعض الدراهم فصدمتها سيارة ونقلت إلى المستشفى ولا نعلم ماذا حل معها لذلك لا تغضب وتفضل هذا هو رقمك الإلكتروني.

شكرته وتوجهت إلى الخلف أنتظر دوري حتى يأتي، فسمعت صوتاً شعرت أنه غير غريب عني، كانت امرأة تقول: ما هذا أمامي خمس وعشرون شخصاً؟

فقال لها الحارس: نعم فعليك الانتظار يا سيدتي.

كانت مقاعد المكتب كلها ممتلئة بالمنتظرين رأيتها تتوجه باتجاه المقهى بجانب المكتب لعلها كانت تريد أن تطلب شيء لتشربه ريثما يحين موعدها .بصراحة كنت بحاجة لأحد لكي أتكلم معه لأضيع بعض الوقت لأنني مللت

الانتظار توجهت إلى المقهى وطلبت كوباً من الشاي وتوجهت نحوها وقلت لها:

- دو يوسبيك إنكلش؟
- نو لي فرانس لي أرابيك.
- جميل أنا أجيد العربية .

طلبت منها سيجارة وقلت لها :

- ظننتك من بلاد الإنكليز ؟
- لا فأنا مغربية الأصل.
- وإلى أين وجهة سفرك؟
- إلى فرنسا عندي عمل جراحي لأنفي غدا، لقد عالجت أسناني مع أنني أهتم بنظافتها كثيراً.
- إن أسنانك جميلة جدا.

وطلبت منها أن تفتح فمها لأراهم عن قرب، وعندما فتحت فمها ونظرت إليها رأيت سحراً كاد يشدني مرة أخرى لأنغمس في فمها وأسرق هذا العقد اللؤلؤي الذي يزين أعماق فمها فقلت لها:

- جميلة جدا أنت يا سيدتي.
- هذا الكلام تقوله لكل فتاة تراها أول مرة.
- أنا لا أحب الكذب ولي زوجة أراها أجمل نساء الكون.
- كل الرجال لا يحبون الكذب ولكن ما أن يشاهدوا امرأة حتى يبدؤون الكذب مثلك تماما.
- لا تكوني قاسية يا سيدتي ليس كل الرجال سواسية ولا كل النساء أيضاً فليست كل أصابع اليد مثل بعضها فأنا بهذه الفترة بصدد تأليف كتاب يحكي عن بعض النماذج من النساء والرجال.
- وهل أنت كاتب ؟
- ليس إلى هذا الحد ولكن عندي إلمام وهواية بذلك..
- وعما تكتب بالضبط؟

- إنني أكتب عن فتاة تعرف عليها شاب في إحدى البارات في أغادير.

- وهل أنت بطل القصة؟

- لا إنها قصة من خيالي يا صديقتي.

فضحكت بسخرية.

- لماذا تضحكين، ما سبب ضحكتك ؟.

وفي هذه اللحظة ضرب البرق والرعد السماء فأرعبها وأخشاها فتغيرت على الفور ملامح وجهها .فقلت لها :

- هل تخافين من الرعد والبرق إلى هذه الدرجة؟ أنه لمنظر جميل ورائع يبعث السرور والطمأنينة إلى صدور الكثير من الفلاحين الذين ينتظرون موسمهم ليستبشروا الخير .

كان كل همي معها أن أصنع أي حديث حتى يطول لقائي معها ريثما يحين دوري في مكتب الطيران ،ولكن هذه المرة لم يشأ هاتفي أن يوقظني من فرحتي كالعادة، فهذه المرة كان الدور لهاتفها حين سمعت رنينه انتفضت عن كرسيها كوثبة الجواد من أرضه، فهمت بعدها أنها لم تكن تسمع

ما كنت أتحدث عنه معها منذ أن صرخ الرعد صوته بوجه السماء.

ركضت إلى الخارج و هي تحمل بيدها هاتفها قلقة خائفة وبدا عليها الخوف أكثر حين اقتربت إليها لأطمئن ماذا وراء هاتفها، صرخت بوجهي وكانت تشير بيدها إلى الهاتف فهمت منها أن والدها يكلمها كنت أشعر بصرخاتها تتوسل إلي لا أعلم لماذا .

التفت إلى شاشة الدور الإلكتروني وكان قد اقترب رقم اثنان وستون دخلت إلى القاعة وجلست بجانب الحارس وكانت الكرسي بجانبها فارغة كانت تنظر إلي بصمت يصرخ وكنت أيضا أنظر إليها، كانت تملك عينين جميلتين تصرع أي فارس فوق جواده . لم أفكر أن أدعوها إلى الفندق، كانت قصتي مع جيهان كافية لكي أرى كل شياطين الدنيا في ليلة واحدة، وإن كان من غريزة الذكور نشر شباكهم لصيد أنثى في لحظة ضعف .شعرت فيها وكأنها تدعوني إليها، تقول إما أن تجلس بجانبي أو

أنني سأفقد عقلي وأقتلع خجلي وكبريائي وأتحدى كل عالمي الشرقي وأصرخ بأعلى صوتي وأقول لك تعال واجلس بجانبي لا أعلم لماذا كان هذا الشعور ينتابني وأنا أنظر إليها.

وما أن حضّرت نفسي للجلوس بجانبها حتى رأيت هذا الفراغ قد امتلأ، كانت امرأة في الخمسين من عمرها قد أخذت المكان وجلست بجانبها بدلاً مني، صدمت من هذا الذي حدث حتى كدت أخسر دوري، لولا أن الحارس ناداني بصوته :

- مستر بليز يور تايم .

جلست إلى طاولة تلك الصبية الجميلة ذات القبعة الحمراء علق على مقدمتها صورة طائرة كتب عليها الخطوط المغربية الملكية فقالت لي:

- اعذرني يا سيدي لم أجد حجزاً لك إلا اليوم مساء.

شكرتها وأخذت التذكرة وخرجت وأنا لا أبالي بتلك السيدة وذلك احتراماً لنفسي وللحاضرين لاسيما أني موجود

في مجتمع شرقي له عاداته وتقاليده، لذا قررت أن أنتظرها بسيارتي وأعرض عليها أن نذهب لمكان آخر نكمل فيه جلستنا التي انتهت بسرعة غريبة .

انتظرت حوالي النصف ساعة أراقب كل من يخرج من هذا المكان لم أترك شخصاً إلا وأصابته عيني ولو كان بحجم البرغوث حتى مللت الانتظار الذي أكرهه، قررت العودة إلى المكتب لأكلمها لأنني متأكد أنها لم تخرج من مكتب الطيران، دخلت المكتب مرة أخرى وبدأت أنظر إلى الجميع بتمعن شديد، لاحظ علي الحارس فسألني إذا كنت قد أضعت شيئاً، كدت أقول له أنني أبحث عن تلك السيدة لولا أن شيئاً رأيته أفقدني صوابي، الشباك رقم أربع وستون هذا رقم تلك السيدة وهناك رجل يحمل ذلك الرقم بيده، بحثت في القاعة من جديد لعلي أراها فلم أجدها فتذكرت ذلك المقهى الذي كانت تشرب الشاي فيه فذهبت إليه لأبحث عنها حتى يسكن الجنون في نفسي قليلاً، نظرت إلى الكرسي التي كانت جالسةً عليه وإذ

أرى شاباً يجلس عليه وأمامه نفس كأس الشاي وكأس الماء والحقيبة التي كانت معها .

فضرب الجنون برأسي أكثر فجمعت قواي وتوجهت نحوه وسألته: هل تعرف لي أين صاحبة هذه الحقيبة؟ فأجابني الشاب بسخرية: وما رأيك من سيكون صاحبها وهي معي طبعا أنا صاحبها .

فقلت بداخلي: لا بل أنا ، العفو لو سمحت هل في مدينتكم مستشفى للمجانين قريب من هنا أشعر بنفسي وقد هربت من بين قضبان سجن الأمراض العقلية .

الحمد لله لم يسمع أحد ما كنت أتمتمه. لملمت نفسي وذهبت إلى سيارتي وأخذت ألطم على وجهي، هل أنا جننت حقاً؟ هل سحرني أهل هذا البلد؟ أخذت أصرخ كدت أكسر زجاج السيارة لولا أنني صحوت على صوت يطرق زجاج سيارتي نظرت فرأيت شرطي المرور يطلب مني أوراقي وإجازة السوق وقال لي:

- أنت تقف بمكان ممنوع.

- آسف إنني أنتظر زوجتي .

حاولت أن أكذب هذه الكذبة لعلي أقنع الشرطي بعدم مخالفتي .

- لقد تعبت يدها وهي تضرب على الزجاج من الجهة اليمنى للسيارة ولم تفتح لها باب السيارة وكنت أنتظرك حتى تفتح لها الباب وتتحرك من مكانك الممنوع ولكن دون جدوى لذلك قررت مخالفتك .
- هل أنت متأكد يا سيد مما تقول ؟
- نعم .
- منذ متى، فأنا هنا منذ خرجت وعيوني تراقب كل صغير وكبير حتى أراها .
- منذ خمس عشرة دقيقة وقفت أمامك وظننت أنك لا تريد أن تفتح لها الباب فذهبت والدموع تملئ عيونها
- ماذا كانت ترتدي؟
- كانت ترتدي معطفا أحمر وعلى رأسها قبعة سوداء

- كفى شكرا لك يا سيد هذه مواصفاتها تماما .

فتحت باب سيارتي وخرجت منها كالأعمى الذي يحمل عصا بيده وقد أُطفأ نور عينيه، فيلوح بعصاه إلى اليمين واليسار وكلما ارتطمت عصاه بحجر قال ابعد عني أيها القدر.

رأيت امرأة ترتدي نفس الملابس فركضت إليها كالمجنون أمسكت بها فصحوت على صفعة منها على وجهي علمت من خلالها أنها ليست السيدة التي كنت أتبعها .

عدت إلى سيارتي وأرجعت الكرسي إلى الخلف حتى أصبح كالسرير استلقيت عليه أكثر من ساعة دون أي حركة فقط كنت أنظر إلى السماء التي تملئها الغيوم بعد ذلك البرق والرعد الذي أرعب تلك السيدة .

وهنا بدأت ذاكرتي تسرد الأحداث وبدأ العقل يحلل تفاصيلها حدثاً حدث، فجأة صرخ صوت من أعماق الدماغ يقول لي: أنت مسحور لقد أصبت بالسحر ، .نعم إنها جيهان هي من سحرتني لأجل المائة دولار، معقول من أجل مائة

دولار تفعل بي كل هذا! كما قال لي صاحب الدكان الذي يبع أدوات الشعوذة أشعر وكأنها تلدغني بلسعة عقرب، وتضربني بصوت الجن، وأشعر أنني أستلقي على بساط من الشوك، حقاً هكذا أصبحت حياتي بعد لقائك يا جيهان، .كنت خجولاً من عودتي إليك، تبدل كل احساسي إليك بعد أن افترقنا الى وافر تقدير واحترام .

لا أدري لما كنت أخاطب نفسي هل لأنني حقاً أصبت بالجنون، أم لأنني رأيت بين الغيوم وجهاً يشبه وجه جيهان، يكاد أن يكون وجهها هو نفس الوجه لتلك السمراء التي رقصت كل الحضور في تلك الليلة وتارة أخرى أتخيلها هي نفسها الجميلة التي رأيتها في حلمي وتلك التي كانت في مكتب الطيران واختفت في لحظات، يا إلهي نعم هي نفسها ، فنفس شكل الشعر ولكن تغير لونه والفم والعيون والرموش حتى لون الوجه، قامتها فهي أيضا نفس القوام ونفس الروح، يا ألهي لقد أصابني الجنون، كلمت نفسي أكثر من أربع ساعات وأنا أنظر إلى تلك الغيوم التي ارتسم

في شكلها وجه جيهان والخجل ملأ وجهي احمراراً و كأنني أقف أمام القاضي خجولا من جريمتي .

لم تكن جريمتي بحق جيهان كما هي جريمتي بحق نفسي.

وغفت عيوني على صوت المطر الذي هطل بغزارة غريبة وخلف ورائه سيولاً تغمر بيوت الفلاحين وتحصد كل ما يمر في طريقها، هذا ما كنت أشاهده على شاشة التلفاز وما فعل غضب السماء بأهل الأرض بينما كانت تحاكمني جيهان. بررت لنفسي أمامها ما استطعت وغفت عيوني منتظراً الحكم علي، فقلت لنفسي كفى ما هذا الهراء وهل سلمت للجنون أمري؟! فليس لي سوى أمران أو أصبح مجنوناً حقاً، أو أبحث عن جيهان وأحل ذلك اللغز الرهيب والكابوس المضني .

سأبدأ بالبحث عنها حالًا خطر ببالي دفترٌ كان على إحدى الطاولات الصغيرة بغرفتي بالفندق، أذكر أنني رأيت جيهان تكتب عليه شيئاً لا أعرفه، فذهبت مسرعاً إلى الفندق

الذي كنت أنزل فيه، حيث كانت هناك مسؤولة تنظيف اسمها فاطمة، امرأة طيبة كانت تنظف غرفتي كل يوم وكنت أتداور معها أحاديث جانبية في بعض الوقت، إنها حامل ومرحة جداً ومثقفة بعض الشيء، لها زوج مقعد إثر حادث لم تشأ أن تخبرني عن تفاصيله، كل ما هنالك أنها قالت لي أنه كان شخصا شيوعياً وأنهم في حالة فقر شديد ولكنهم سعداء، كانت البسمة لا تفارق وجه فاطمة مع كل التعاسة والحرمان التي كانت تعيش فيه، كانت في كل الأحيان تضحك وتغني حتى أنني مرة سألتها :

- عجبت لأمرك يا فاطمة فلا تملين الضحك امرأة في مثل ظروفك تعمل ليل نهار وحامل وزوجها مقعد يجب أن لا ترى الابتسامة في زمننا هذا؟
- يا سيد صدقني ليس غنى المال في كل الأحيان يشتري سعادة، ولا فقر المال دائماً يجلب التعاسة، فالابتسامة ملكنا ولا ندفع عليها ضرائب ومهما

يكن البؤس مخيماً علينا صدقني يا أيها السيد الطيب عندما نبتسم نجبره على الرحيل .

المهم أنني وصلت الفندق وطلبت مفاتيح الغرفة التي كنت أنزل فيها، طبعاً كان الموظفون بذلك الفندق يهتمون بي ولا يعاملونني معاملة نزيل عادي بالفندق لأنني كنت على علاقة جيدة مع صاحب الفندق.

فتحت باب الغرفة وبدأت البحث ولكني لم أجد شيئاً اتصلت بأحد الموظفين وطلبت منه أن تأتي فاطمة إلي، وعندما أتت سألتها إذا كانت رأت ذلك الدفتر أو قامت برميه بالقمامة فقالت لي:

- أنني أتذكر أنني رأيت شيئاً يشبه ما تقول لكنني يا سيد رميته بالقمامة، لأنه كان ممزقاً ومتسخاً، وكل سطوره مليئة بالكتابات التي لم أفهمها، والله لولا أن المطر قد ملئ حاوية القمامة ماءً لكنت سأنزل وأبحث لك عنه فيها، سامحني يا سيدي ليس باليد حيلة ولكن إذا أحببت

أن تخبرني ما هو موضوعك وأستطيع أن أساعدك فتأكد أنني لن أكون مقصرة في خدمتك .

- يا فاطمة أنا شخص متزوج وأحب زوجتي كثيراً ولكن هناك فتاة اسمها جيهان كانت بضيافتي في هذه الغرفة، لا أعلم ماذا فعلت بعقلي وكأنها سحرتني، أشعر بأنها ريح وأنا عشبٌ أتجه أينما يهب ويحركني كيفما يشاء، وأصبحت خائفاً من هذه الريح أن تقتلعني من جذوري لذا يا فاطمة أرجوك يجب أن ألتقي تلك الفتاة أو أحصل على رقم هاتفها بأي طريقة ها أنا أطلب منك المساعدة وسأكون جاهزاً لأدفع لكِ ما تشائين...

غضبت مني فاطمة عندما تكلمت معها بهذه الطريقة وقالت لي :

- لماذا أنتم الأغنياء تظنون أن الفقراء ليسوا بحاجة إلا للمال، ولا يساعدون أحداً إلا من أجل المال، إن اللّه هو رب الفقراء والأغنياء وكلنا أخوة من أب واحد

وأم واحدة فكلنا أبناء لآدم وحواء ولا فرق يفرقنا سوى العقل والحظ، فهناك من حالفه الحظ بعقل يعمل جيداً ويجمع من خلاله المال، والآخر مليء بالجهل والفشل فجنى فقراً وحرماناً، ولكن نحن نبكي وأنتم تبكون ونحن نفرح وأنتم أيضا تفرحون، يزوركم الحزن كما يزورنا لا نأكل مثلما تأكلون ولكن مثلما تأكلون نأكل نحن نبكي وأنتم أيضا تبكون ولكن ما يبكينا ليس ما يبكيكم ما نحلم فيه موجود عندكم وما تحلمون فيه غير موجود عندنا ولكننا نحلم مثل ما تحلمون ...

- أرجوك اهدئي قليلا فأنا لم أقصد إهانتك أعلم أنك كادحة، وتمتلكين من الكبرياء ما كثيرٌ من الأغنياء لا يمتلكونه، وأحب أن أقول لك بأنني كنت فقيراً مثلك وعانيت من الحرمان ما لم تعانيه

فهل عندك البعض من الوقت لأقص عليك بعض من رؤوس الأقلام من قصتي فأنا بحاجة لأحد يسمعني .

- هناك بعض الوقت ليس بالكثير.
- ولكن كي تسمعيني أنت بحاجة لبعض الجنون فهل عندك قليل من هذا الجنون كي أستطيع أن أتحدث معك بعض الوقت .

فضحكت فاطمة وقالت:

- ليس هناك مشكلة فأنا كان اسمي بالمدرسة المجنونة لأنني قلت لهم أنني شاهدت صحناً طائر وخرج منه رجل له عين واحدة أخذ يقبلني ومنذ ذلك الوقت وهذه الصورة لم تفارق خيالي هيا تكلم فليس معي من الوقت أكثر من ساعة ويجب أن أذهب إلى البيت .

جلست أنا وفاطمة على الشرفة بعد ما طلبت كأسين من الشاي وبدأت أحدث لها كل ما جرى معي منذ تلك الليلة إلى هذه اللحظة فقلت:

- هل يعقل لأحد أن يسبب كل هذا الأذى لشخص آخر من أجل مائة دولار، ومن تلك المرأة التي أتت تسأل عنّي في الفندق، وما هذه الأحلام التي لا يراها سوى الموتى. الحقيقة أنني ما زلت محتفظاً بعقلي ولكنني إذا لم أجد حلاً لذلك اللغز مؤكدٌ أنني سأجن قريباً.
- لماذا كل هذا التعقيد، أترك أمرك إلى اللّه ولا تحمل نفسك أكثر مما تستطيع تحمله.
- لا أريد أن أحملك همومي يا فاطمة، فهذا الشخص الذي يجلس أمامك دائماً قلبه يحمل بحراً من الأسى والألم، لكن والحمد للّه ما إن أصاب بجرحٍ حتى يرسل اللّه لي شخصاً طيباً يشفيني، لقد نشأت فقير لا أعرف أحداً بالدنيا سوى تلك الأم الرائعة التي رسمت لي الحياة بأجمل لوحة، كانت هي من أشكي له همي وكربتي، كانت تعمل ليل نهار في تلك القرية النائية، كانت تتركني في البيت وحدي

وأنا عمري خمس سنوات كانت تقول لي ها أنا أوصيت الرب والملائكة ونجوم السماء بحمايتك وأن تدفئ فراشك يا ولدي، كانت عندما تأتي من عملها وتراني أبكي تقول لي لقد كلمتني الملائكة وقالوا أنهم لن يحرسوك بعد اليوم إن عدت للبكاء يا ولدي، كم هي رائعة أمي يا فاطمة كانت تعمل قابلة قانونية في قريتنا وبالنهار تعمل في مستشفى بالريف، لكنها بعملها وقلبها الطيب ملكت قلوب كل الناس وأصبحت لها علاقات جيدة فأشتهرت بمجال عملها كقابلة قانونية، فعلمتني بأحسن المدارس وأدخلتني مدرسة الرياضة لكرة القدم وأيضا علمتني في مدرسة الفن رقص الباليه، كنت أدرس ليل نهار من أجل أن ألبي رغبتها ولا أدع تعبها يذهب سدى، حيث كان أهل القرية يعرفون أمي جيداً ويعلمون أن أبي عربي الأصل، لم تخبرني من أي بلد هو ولكن كل ما

أعلمه أنه قتله جماعة من المتعصبين اتهموه بالكفر هذا كل ما أعلمه عن أبي .

لم نشعر أنا وفاطمة بالوقت فقد مضت ساعتان، نسيت خلالهما سفري وهي نسيت زوجها فقلت لها :

- لقد تعبت، وأنت تأخرت عن زوجك، لعله ينتظرك برمقه الجاف وبطنه الخائر من الجوع، تعالي نشرب الشاي غداً على شواطئ المحيط.
- لكن غداً عطلتي ويجب أن أخرج بزوجي المقعد من البيت كي يتنفس، فقلت لها: حسناً تعالي معه، أحب أن أتعرف عليه كي لا تظني أنني ككل الأغنياء الذين في خيالك، فليس كل الأغنياء كما تظنين لكن هموم ومشاغل الدنيا أبعدتهم عن الآخرين.
- حسناً يا سيد غداً في العاشرة صباحاً نلتقي ...

فأصبحت أكلم نفسي، وأدعو الله وأقول له يا رب أفرج همي وأخرجني من هذا السحر الذي أعيش فيه، والذي لم

يترك في عقلي مكاناً حتى لأفكر بزوجتي وطفلي الذي اشتقت لسه كثيراً .

كانت شفاهي تتمتم بالدعاء، ورأسي على وسادتي، ورموشي أقفلت عيوني، لأدخل في سباتٍ عميق وليلةٍ هادئة ..

استيقظت في الصباح الباكر، احتسيت كأساً من الشاي الأصفر وما يسمونه في المغرب الحلبة، وخرجت إلى الشرفة. كانت الساعة السابعة صباحاً، نظرت إلى الأفق فرأيت السماء كأنها تعبت من هموم الليل واستلقت على فراش من مياه المحيط تنتظر تلك الشمس التي ستخرجه من وحدته وتدفئه من برد الليل.

كنت أرى خيالاً من بعيد لامرأة جميلة رقيقة قد نام عليها تنين ضخم فجمعت كل قواها وعزمها، تختلسه وتزحف من تحته كمثل طفلٍ عمره سبعة شهور، يحاول الهروب من نهد أمه بينما تريد أن تجبره على الرضاعة، فتغضب الأم وتصرخ في وجه طفلها فيهدأ الطفل مجبوراً ...

نهضت السماء عن محيط الأطلسي وسطعت الشمس بأشعتها وصباحها الجميل والذي كانت تحرك نسائمه العشب والورد، ويمتزج بعطر الأطلسي المحمل برائحة الأسماك وأجيج الأمواج ...

ولكن لا أعلم لماذا هذا المشهد ذكرني بالحلم الذي كان فيه الطفل يصرخ على ذلك الرجل الذي معه ناقة وبصحبته أمي، حيث كنت أصرخ عليه وأقول له أنت لست أبي أعد لي أمي، كنت أسمع في خيالي تلك الأصوات التي يصرخ فيها الطفل، ينادي أمه وهي لم تبالي لصراخه جرت خيوط فستانها الممزق ورحلت عنه .

كانت الشمس بأشعتها الساطعة قد بدأت تقفل عيني من غير نعاس، كانت تختلس بعض الماء من الأطلسي بخراطيم من البخار الذهبي الساطع اغتسلت فيه ابنتها السماء وأخرجتها من برد الليالي وعتمتها وألبستها أجمل فستان خيوطه من هذا الشعاع الذهبي، سبحان اللّه وكأن الملائكة تغتسل فيه أجمعين وقد تقمصوا بجسد واحد

كنت أشعر بأن هذه اللوحة في السماء كانت تناديني وتتوسل إلي، لا أعلم ولكنني أدركت كل الإدراك أنني يجب أن أبحث عن جيهان وأعطيها ما تريد أن أعطيها حتى تخرجني من المغرب العربي الذي لا يتحمله شخص غربي.

سحرني المغرب بجمال طبيعته وطيبة أهله ومحيطه، كذلك بساحرة جميلة وطيبة، لقد سحرني هذا البلد مرتين وفي كلاهما رحلة جمال لا توصف، حقاً لا توصف...

من هنا بدأ مشوار البحث عن جيهان، تلك التي سحرتني في أول مرة أخون فيها وصية أمي وزوجتي الحبيبة، تلك التي رأيتها في المسارح وفي السماء تراقص الغيوم في داخلي، كان هناك شعور يقول لي بأن الطريق صعب جداً للوصول إليها ويسألني لعلي أتراجع عن قراري بالبحث عنها ..

ولكنني أصريت على رحلة بدء البحث، مصمماً على أن أصلح خطأي لعل الرب يسامحني ويغفر لي، ها قد وصلت السيارة التي وجدت فيها فاطمة، تقدمت من هذه السيارة حتى أساعد فاطمة بنزول زوجها المقعد منها.

فتحت صندوق السيارة الخلفي وأنزلت منه الكرسي المتحرك الخاص بالمقعدين وتقدمت من الباب الذي نزل منه ذلك الشاب الوسيم الذي كانت ترتسم في عيونه جرأة ورجولة رغم الداء الذي أصابه، مد يده وسلم علي، شعرت بأن أصابعي كادت أن تتكسر بين أصابعه، وكتفي سيخلع وهو يهزني ويرحب بي، قال لي:

- أهلا بك يا أيها السيد اسمي فتاح ولقد حدثتني عنك فاطمة زوجتي.

رحبت به وحاولت أن أجر العربة، فقالت لي فاطمة: لا داعي أن تتعب نفسك فهو يقوم بمهامه وحده، فقلت لها :

- لكن الدرج صعب وقاسي.

فنظر فتاح بعيوني وقال لي:

- لا تظن أنني مقعد ولذلك أنا ضعيف، أنا أقوى على أن أفعل ما لا يستطيع الأقوياء الأصحاء أن يفعلوه .

نظرت إليه وقد صعد الأربع درجات كما ولو أنه ليس مقعداً وتابع قوله :

- في بلادكم هناك رعاية للمقعدين وبرنامج لدمجهم في المجتمع أما هنا يا صاحبي لا يقدمون لنا شيئاً، وما أن نصبح مقعدين حتى نصبح غرباء في مجتمعنا، وعلةً على أهلنا، لذا قررت أن أخوض معركتي أنا وحبيبتي فاطمة والتي لم تتخلى عني لحظة واحدة .

قال فتاح هذه الكلمات وكادت الدمعة أن تهرب من عينيه،في هذه االأثناء كانت فاطمة ذهبت إلى البريد لتحضر بعض الأدوية، لاحظت عليه أنه منذ سنين لم يتكلم إلا مع زوجته، فتكلم معي أكثر من نصف ساعة، حدثني كيف داسته سيارة العسكر عندما تظاهر هو ورفاقه مطالبين الدولة بالإصلاح ومساعدة الفقراء والمعوقين، وكأنه كان يشعر بأنه يوماً سيصبح واحداً منهم، حدثني عن الريف وأهله، لاحظت أن نفسه كانت تنازعه للحديث

عن السياسة ولكنه سرعان ما يتراجع، وكأن لسان حاله يقول له: كفى لن نعود نتكلم بالسياسة، قال لي جملة لم تزل في ذاكرتي: إن كان الرئيس أعوجاً فلن تستطيع أن تصلح المرؤوس ..

تابع قوله لي : لقد حدثتني فاطمة بأنك رياضي مشهور وأعتقد بأن لك جيشٌ من الأصدقاء والمحبين والمعجبين، وتتلقى كل يوم مئات القبلات من المعجبات .

- نعم ولكن ليس إلى هذا الحد.
- نحن الرجال قوامون على النساء لذا امرح وتمتع، إن الله أعطاك موهبةً قل من يتمتع بها، فلو كنت مثلك لكنت سأشتري لفاطمة قصراً في جنيف .

فأضحكني كلامه حقاً قلت له:

- لماذا بالتحديد جنيف ؟
- كنت أسمع عن اجتماع الأمم المتحدة ومجلس الأمن الذي يدافع عن الشعوب المضطهدة ومجلس حقوق الإنسان، كنت أتخيل بأن سويسرا

وعاصمتها جنيف ملائكة الرحمة، طبعاً كان هذا قبل أن أصبح مقعداً وأجلس طويلاً أمام الأخبار وأقارن الكلام بالأفعال وأكتشف بأن هؤلاء لصوص الأخلاق والرحمة، فأنظر الحروب في كل مكان، وقتلة الإنسان يفتكون بالنساء ويقتلون الأطفال وينحرون الشيوخ وتسلب الأرض من قاطنيها، و هم يبقون فاقدين البصر والبصيرة، صم وبكم، إلى أن تتأثر مصالحهم وأموالهم، فيصبحون ملائكة الرحمة، في بلادكم كل يوم قانون ومشروع جديد، وفي بلادنا كل يوم خطبة وخطاب جديد، أنتم تتقنون قوانينكم وطرق إيذائنا، ونحن نتقن اختيار الكلمات والشعر لنبدع في خطاباتنا، في بلادكم كل يوم يبدلون قانون ودستور وفي بلدنا أيضاً صاحب القرار يبدل بذلته الرسمية عشرات المرات، لا يهم كلهم بنفس الأنانية

ولكن لكل منهم طريقته ومساره وتكون دائماً الضحية هي الشعوب الفقيرة ..

لقد فاجئني فتاح بكلامه فقلت له :

- لك إلمام لابأس به بالسياسة.

- كيف لا وقد أقعدتني السياسة على هذا الكرسي اللعين، كنت لا أخاف شيئاً، وأتكلم وأخاطب وأناقش كل مدعي بالوطنية والشرف والأخلاق، لم يطلبوني ولا مرة للتحقيق، لأنهم يدركون تماماً أنني لن أستطيع التأثير عليهم بشيء، لأنه بالنسبة لشعوب العالم الثالث لا فرق بين الميت والمقعد، إلا أن المقعد يأكل ويشرب.

صدقني في بعض الأحيان أقول لنفسي إن الموت أرحم علي من أكون مقعداً أسمع وأرى القباحة بعيني ولا أقوى إلا على السمع فقط . في هذا الزمن يا صديقي كل من يفكر برفاهية الشعوب وحريتها يكون مسكنه السجن، والذي يتقن سلب

الشعوب كرامتها وحريتها يكون مسكنه القصور وأفخم السيارات و حتى ربما أصبحت أشك بأن آخرته الجنة ..

و ها قد وصلت أخيرا فاطمة فقال لها :

- لماذا كل هذا التأخير يا فاطمة .
- كان هناك أكثر من مئة مريض وعامل، فكم مزعجة هي مراكز الدولة،لماذا لم تطلبوا شيئاً لتشربوه؟

فقلت لها :

- كيف نشرب في غياب سيدة المجلس؟
- لا العفو يا سيدي فما أنا إلا خادمة للأسياد.
- كم محظوظون أولئك الأسياد الذين تخدمينهم ولكن دعيني أكون اليوم خادماً لك ولزوجك فتاح لأننا من اليوم قد أصبحنا أصدقاء ..

فقالت فاطمة : لا العفو يا سيد فالعين لا تعلو على الحاجب، رحم اللّه أمك التي ربتك بهذه الأخلاق، صحيح كنت أريد

أن أسألك ونسيت من تلك الجميلة التي تضع صورتها بغرفتك ظننت أنها أمك.

أجبتها قائلاً: نعم إنها أمي، كان أبي قد التقط لها هذه الصورة يوم تعرفوا على بعضهم في إحدى مدن الشمال المعروفة ببردها وجمالها، حينما كانت في التاسعة عشرة من عمرها وإلى اليوم بقيت صورتها هذه في مخيلتي وقلبي، لم أكن أتخيل يوما بأنها قد ترحل حتى صباح ذلك اليوم الذي تركت فيه أمي في سباتها العميق، خرجت أتذكر كلمات طبيبها حينما قال لي: علينا بعد شهر على أقصى حد أن نضعها تحت مراقبة جهاز خاص إن لم تستطع الأدوية أن تحسن حالها، فقلت لنفسي: يا اللّٰه هل يعقل أن ترحل أمي يوماً ما عني، وإلى من سأشكو همي، وفي حضن من سأدفن جسدي حين تصيبني قشعريرة هموم القدر،يا إلاهي هل قررت أخيراً أن تجمعها بأبي في جنتك؟ وأنا لمن ستتركني ..؟

فهل شعرت أمي بأنني لم أعد بحاجة إليها ، و اللّه يا أمي لو مت من الظمأ لن أشرب الماء سوى من يديك الطاهرة .

دخلت ﴿ محيط عميق من الخوف والأنانية وكدت أغرق فيه أكثر، لولا الهاتف الذي رسم على صفحته اسم فكتوريا وعلى الفور نسيت كل شيء ووضعت الهاتف على أذني وسمعت صوتها تقول لي :

- صباح الخير كيف حال أمك .
- إلى الآن وضعها صعبٌ و لكنه مستقر نسبياً.
- إن كان من وقتك متسعاً تعال نحتسي القهوة معاً .

فما كان مني إلا أن وافقت سريعاً ، ونسيت مرض أمي التي كانت طريحة السرير وذهبت إلى موعدي مع فكتوريا.

حينما رأيتها وكانت كما عادتها ﴿ تألق وجمال وبهاء ليس له نظير اتجهت إليها كالمجنون وقلت لها :

- عفواً للتأخير، كان هناك ازدحام شديد ﴿ الطرقات اليوم لدرجة غير معقولة، السيارات تقفز

كالعفاريت من مكان لمكان وكأنها في حلبة سباق.

ابتسمت فكتوريا ثم سألتني عن وضع أمي الصحي فقلت لها:

- لا أدري أنني خائف كنعجة ترى سفاحها يسن سكينه أمام عينيها، لا أدري أمي وضعها خطير للغاية،. جلست معها قليلاً فرأيتها مسرورة ومطمئنة، وكأنها هي تطلب من اللّه الرحيل، فكانت تُسمعني دعواتها للرب وهي تنتظر بفارغ الصبر حين يجمعها بأبي، عاشت كل حياتها كادحة وتحب الناس أجمعين، لم تعرف يوماً الكره والضغينة لأحد، تدفع كل ما تقدر عليه للجمعيات الخيرية، وكل يوم أحد تذهب للكنيسة وتجبرني أن أكون معها، وتقول لي: أوصاني أبوك بأن نحب الرب دائماً وأبداً.

كانت دائماً واثقةً أن أبي في الجنة وتعمل كل ما يرضيه، وكأنه مقيم بيننا ويعيش معنا، فأخذت تقول لي في هذه المرة بأنه حان موعدها لتلتقي أبي، وأنا في حيرة من أمري فلا شيء في الدنيا يعوضني خسارتي لأمي .

أخرجت فكتوريا من حقيبتها منديلاً، وأعطتني إياه كي أمسح دموعي، فقلت لها: عفواً فكتوريا لم أرد أن أحمّلك همومي.

نظرت إلي ببسمة ملائكية وبقيت صامتة، شعرت أنها كانت بنفس اللحظة تتذكر أمها وتعيش معي لحظات الأسى التي أعيشها، فتكلمت بصوتٍ خافتٍ وفيه حرقة مثل حرقتي وقالت :

- إننا بشر مثل كل البشر، الكل فقد والكل يفقد والكل سيفقد يوماً أمه وأباه، وممكن أن يفقد أخاه، فهذه شريعة الحياة وهذا ما يرضيهم، فلماذا لا نرضى بما يرضيهم ؟

تأملتها وهي تتكلم وقلت بنفسي: يا إلهي هل هي تتكلم أم الملائكة تتكلم بشفاهها ؟.

بقينا أكثر من خمسة عشر دقيقة، أنا أبكي وهي تعانقني و تنظر إلى السماء الصافية .

بعد قليل اتصلت بي ممرضة أمي تخبرني أن أمي استيقظت من سباتها، حيث أنني طلبت منها قبل أن أذهب أن تخبرني عندما تستيقظ أمي، فقلت لفكتوريا: أنا آسفٌ، إنني مضطر لأذهب لأكون بجانب أمي، فقالت لي فكتوريا: هل تسمح لي بالذهاب معك إلى أمك؟ فقلت لها: طبعاً وبكل سرور. ذهبت بصحبة فكتوريا إلى المستشفى حيث أمي، وقفنا عند الباب وكانت فكتوريا تمسك بيدي وحقاً أنني لا أتذكر هل أنا من أمسكت بيدها أم هي، كل ما أتذكره أنني لم أكن أريد أن تترك أصابعي أناملها الرقيقة، بقينا هكذا ننتظر زيارة الطبيب رئيس القسم ليطمئننا على صحة أمي، حينما جاء أخبرنا بأن وضعها

حرج وسيبحث عن حل، ولكن لا نستطيع فعل شيء سوى الدعاء لها.

سرعان ما أرجعتني ذاكرتي إلى أول يوم رأيت فيه أجمل امرأة تراها عيني، وأخذت أتأمل المحيط واستسلمت عيوني له كالغريق في أعماقه، لولا صوت فاطمة تناديني بصوت يصحبه ابتسامة عالية:

- هيه يا هذا ما بك تكاد تأكل المحيط بعينيك كأن ملكة الحسن تخلع ملابسها وأنت تترقبها من وراء ستائرك.
- لا يا فاطمة ولكنني شردت قليلاً.
- إذاً أنت تفكر بتلك من تسمى جيهان التي سحرتك.
- لا يا فاطمة، ولكن أقول لكِ شيئاً، لقد فقدت أمي منذ سنين، وصنع رحيلها فراغاً واسعاً بحياتي، ولكنني بدأت ألاحظ أنه من فضل دعاء أمي أنني وما أن أشعر بوحدتي، حتى ويأتني من يملأ فراغها ولكن قلبي لا يخفق إلا بذكراها يا

فاطمة، انظري ما إن ذهبت أنتِ وزوجك إلى دورة المياه حتى ناداني المحيط، يحدثني وأحدثه عن رائعتي، يبكي هو وأحبس الدموع أنا احتراماً لكبرياء الرجال، فمنذ أن رحلت أمي وأنا كأس الخمر في يدي، وبسببه قد تدهورت علاقتي بزوجتي ومن الممكن أن يصل بنا هذا التدهور إلى حد الفراق، أتدرين يا فاطمة إن فكتوريا أحبت أمي كثيراً وأمي أيضاً أحبتها أكثر مني، تصوري أصبحوا يجتمعون مع بعضهم كل يوم وأصبحت فكتوريا من اللقاء الثاني تناديها أمي، كم كانت رائعة تلك الأيام وكم كانت قصيرة الأمد خطفتها رياح القدر كغبار الطلع على الأزهار .

قاطعتني فاطمة بصوت تملؤه الابتسامة:

- هيا كفى يا سيد فوالله أنك تحمل هموماً أكبر من هذا المحيط ..

توجهنا أنا وفاطمة وزوجها إلى الأماكن التي كانت جيهان تتردد عليها لعلنا نجدها، أخذت أتذكر كيف خرجنا من دخلة المولى سيد حسين، ففي صباح ذلك اليوم كنا قد مررنا جانب جامع سمي جامع سيدي الصالح وبعدها طريق مستقيم أخرى ينتهي على ممشى شاطئ الأطلسي وفي هذا الطريق أخذنا نمشي حتى أنهكنا التعب، شعرت بأن البحث عن مكان لا أذكر اسمه في بلدة تعدادها أكثر من نصف مليون، مثل البحث عن إبرةٍ في كومة قش، حينها نظر إلي فتاح زوج فاطمة وقال لي :

- لقد تذكرت إن لي صديقاً بالمباحث العامة، ما رأيكم أن نسأله فهو يعلم كل أوكار الأخلاقيات.
- حسناً رائع جداً، سأتوجه الآن إلى مكتب الطيران وألغي تذكرتي وسأحل هذا اللغز مهما كلفني من مال وجهد..

وفي صباح اليوم التالي وكنت قد أجلت سفري من أجل عملية البحث عن جيهان، وبينما أنا أحتسي الشاي المغربي

رن جرس هاتفي، وكان من يكلمني فتاح زوج فاطمة، فقال لي: جهز نفسك لقد أخذت لك موعداً مع رجل المباحث العامة الساعة الواحدة ظهراً، فقلت له: حسناً سأكون جاهزا.

على أحر من الجمر أمضيت الوقت حتى الساعة الواحدة، فكان ينتابني حزن وغضب ممزوج ببعض الأمل بأن التقي جيهان، وصلت وبرفقتي فتاح زوج فاطمة إلى صديقه رجل المباحث .

قبل أن أروي له قصتي أخبرني أن هذا الحي الذي أنا أبحث عن جيهان فيه هو وكر لأعمال الأجرام، واستمر لأكثر من ساعتين ونصف يحدثنا عن الحي وقصصه، و في آخر المطاف وبعد أن حدثته بقصتي مع جيهان وكيف التقيت بها في ملهى أجهل عنوانه لأنني كنت في حالة سكر و فاقد الوعي، قال لي أن هناك ملهىً صغير يتردد إليه الأجانب بعد سهرات الخمر والسكر وبرفقتهم فتيات الليالي، وهو غير بعيد من المكان الذي نحن موجودين فيه.

على الفور توجهنا إليه وحقاً كان هو ذلك الفندق الذي جمعني بجيهان، فصرت أصرخ فرحاً، نعم هذا هو يا فاطمة، هذا هو يا فتاح، الفندق الذي جمعني بجيهان، لا أدري لما أصبحت أقفز مثل الطفل الذي فقد أمه ووجدها.

كنت أشعر أنني لست أنا من يطير من الفرحة بل ذلك الحزن الذي سكن أحشائي منذ تلك الليلة وزرع الشوك في حنجرتي وكاد يقتل الأمل بقلبي لولا فاطمة وزوجها فتاح الذين قرروا أن يساعدوني دون أي مقابل وقضوا يوم استراحتهم يبحثون معي عن جيهان حتى يريحوا قلبي...

دخلت الفندق ورأيت رجلاً وراء طاولة في غرفة يسمونها مكتب، وكان دخانُ سجائره الكثيف لا يظهر منه سوى خيال شخصيته وكأنه ضباب في صباح أغبر لا ترى من خلاله سوى أمام أنفك، في الحقيقة كان الرجل مهذباً معنا عندما سألته عن جيهان، فقال لي: يا سيد بهذه الطريقة لن تستطيع الوصول إليها، لأنه في فندقنا يومياً هناك فتيات جدد وكثيرون، وهم كلهم يتخفون بأسماء مستعارة حتى

أنهم في بعض الأحيان يغيرون أشكالهم، وبخصوص هذا الاسم الذي تذكره صدقني فهو غير موجود عندنا.

لقد أصبت بالإحباط وأنا أسمع ما يقوله ذلك الرجل وقلت له: ولكنها يا سيد وعلى ما أذكر كانت زبونة دائمة عندكم، كما و تكلمت مع الموظف بطريقة تدل على أنها تعرفه، فقال لي: يا سيد كل فتيات الليل هم زبونات لنا ولغيرنا وأي منهن تدخل إلى فندقنا ومعها زبون نعاملها أمام الزبون بطريقة تشعر الزبون أنها على علاقة طيبة وتواصل معنا، فهكذا يتطلب عملنا، فقلت له: طيب لو سمحت من المعلم حسن، هي تكلمت مع الموظف أمامي وقالت له سأشكوك إلى المعلم حسن، عندها ارتعب الموظف ورضخ لطلباتها حتى لا تشكوه للمعلم حسن .

نظر إلي ذلك الرجل وهو يضحك ويقول: يا سيد كل هذه السيناريوهات تكون عندنا مجهزة مسبقاً بهاتف أو إشارة من الفتاة، أنا صاحب هذا الفندق وأسمي ياسين وليس حسن .

ولكن يمكنك أن تنتظر قليلاً ريثما يأتي الموظف الذي كان موجوداً بتلك الليلة، فهو يستطيع مساعدتك بذلك الموضوع أكثر مني، ومن المؤكد أن يكون متذكراً من التي كانت معك ومن هي جيهان..

صدمت لما سمعته من ذلك الرجل ولكنني بقيت مصراً في البحث عن جيهان، فقلت له: هل تسمح لي أن أصعد إلى الغرفة التي كنت مع جيهان فيها لعلي أحظى بشيء يدلني عليها؟ فقال لي: بكل سرور أبحث في الغرف كلها إن شئت.

دخلت الغرفة ورأيتها كما تركتها أنا وجيهان، فلم يزل كل شيء على حاله وكأنه لم يدخلها أحد من تاريخ خروجي منها برفقة جيهان.

عندما دخلت رأيت الشماعة التي كنت أعلق عليها معطفي، فعشت اللحظات التي كنت أعلق فيها معطفي أول ما دخلت الغرفة، فشدني سحرٌ إلى ذلك السرير فاستلقيت عليه، ومنه أخذت أستنشق رائحة عطر جيهان والتي لم تزل

موجودة على وسادة جيهان التي غطت فيها وجهها حين كنت أقبل صدرها وأسبح بشعرها الأسود .

فمنذ أن التقيت بجيهان إلى اليوم لم ترتح روحي وتفكيري مثل هذه اللحظات، لحظة عادت لي رائحة عطرها ، شعرت بأنني لأول يوم أعشق امرأة، ما يوماً كنت متفائلاً مثلما كنت في تلك اللحظات، شعرت بأنني مثل سجين وراء القضبان منذ خمسين سنة، وبقدرة قادر اختفت من أمامه تلك القضبان وإذا به واقفاً في بستان ملأته زهور الربيع بهاءً، ويداعب خده نسيمها المعطر ،فترقص الفراشات على لحن الربيع.

كانت فرحتي برائحة جيهان فرحةٌ لا تساويها كنوز الدنيا ، أردت أن أخبئها في كوخ العشاق حتى لا يجدها أحدٌ إلا أنا ، وأن لا تكون لأحد إلا لي أنا وحدي .

ولكن مرة أخرى شعرت بأنني لست أنا ، وهذه الفرحة ليست لي وإنما صاحبها إنسان آخر، بدأت أشعر أنه يجلس

في داخلي شخصٌ آخر، لا أعلم من هو، لما هذا الشعور بدأ يسيطر على مخيلتي لا أعلم .

نظرت خلفي فرأيت فاطمة تنظر إلي كأنني متسول مسكين قد أكهل وجهي البؤس وسرق فرحتي الجوع والفقر فقالت لي فاطمة :

- أريد أن أقول لك شيئاً يا سيد ولكنني أخاف أن تغضب مني .
- تكلمي يا فاطمة فأنا استحالة أن أغضب منك بعد كل هذا التعب الذي واجهتيه أنت وزوجك بيوم راحتك لأجلي.
- أنني لا أرى مبرراً لكل هذا الهم والتعب والقلق الذي تعيش فيه من أجل فتاة عاهرة تعرفت عليها في ليلة واحدة، فهي لا تستحق منك كل هذا العناء والتعب.
- يا فاطمة وحق الرب أنك تظلمينها، يا فاطمة العاهرات بنظرنا يبقون عاهرات مهما كن طيبات، لأن طمع غرائزنا الجنسية هو أكثر الغرائز أنانية

لدى الإنسان، وهي الوحيدة التي لا تتم إلا بافتراس غريزة الآخر، لذا لا يكون في فكرنا شيء سوى تلك اللذة، فحينما نذبح دجاجة لا يهمنا سوى لحمها وكيف سنشبع جوعنا، تماماً مثل علاقتنا بالنساء، حين نضاجعهن لا يهمنا سوى كيف سنأكل أجسادهن، وكيف سنسكت جوع غرائزنا، ولا يهمنا إذا كانت هي مرتاحة لذلك أم لا، وما الذي أحوجها لفعل ذلك، لا نفكر بظروفها، كل همنا إرضاء نفسنا على حساب جسدها وسمعتها مقابل بعض الدراهم، والتي من الممكن أن تكون بحاجة لها لتطعم أطفالاً أيتاماً أو أن يكون أحدٌ من عائلتها بحاجة لعمل جراحي.

أنتِ تعلمين ظروف بلادكم مع أن لقمة الحلال طيبة وتستطيع أن تخمد القليل من أوجاعنا، ولكنها وللأسف لا تكفي أن تسد جشع طبيب في مستشفى لا يقوم بعمل جراحي لفقير حتى يقبض

الأثمان الباهظة، يا فاطمة لا أظن بأن هناك فتاة على وجه الأرض تبيع جسدها إلا إذا كانت مجبورة على ذلك، وأنا بالنسبة لي لن أسامح نفسي يوماً حتى أرى جيهان، و أيضاً أكفر عن ذنبي عن اللحظة التي خنت فيها زوجتي .

أدرت ظهري لفاطمة وذهبت أنظر من شباك الغرفة وأتمتم بصوت لا تكاد تسمعه سوى أذني، يا أيها الرب ما هذا الذي أشعر به وما الذي يجري معي، فهل أنا عاشق لتلك المرأة؟ وأين حبي وولائي لزوجتي فكتوريا التي أخذت في قلبي مكان أمي؟ ارحمني أيها الرب خلصني من هذا الذي أنا فيه، اكشف لي هذا اللغز، خلصني من محنتي التي أوشكت أن تنسيني ابني مكسيم، يا رب من تلك المرأة؟ من هي جيهان؟ ما هذا السر ؟

- يا فاطمة هل من الممكن أن أكون قد أحببتها؟ هل من الممكن أنني أحببت عاهرة؟ هل سأعيد حكايات الملوك الذين كانوا يعشقون الجواري؟

أخبريني يا فاطمة هل من الممكن أن أكون قد أحببت جارية؟ ولما نحن نسخر من الجواري مع أننا نحن من نريدهم، ألا يملكون قلوباً مثل قلوبنا؟ وهل منع عليهم الحب كما منع على العبيد عشق ملكاتهم؟ لماذا لا يجلد الأمير حين يعشق جارية ويضاجعها؟ لماذا لا يرجم الزاني كما ترجم الزانية؟ لا أدري لما رافقت جيهان ولما خدعتها ولما أبحث عنها الآن، مثل السارق أبحث عن صاحب المنزل لأقول له يا سيدي لقد أحببت ابنتك عندما كانت نائمة معي بالسرير .

كانت فاطمة أثناء حديثي هذا، تنظر إلي بعيون يملأها الاستغراب والدهشة فقالت لي:

- اهدأ قليلاً وهيا بنا ننزل فأنني سمعت أن السيد ينادينا ويقول لقد أتى الموظف الذي تنتظره..

أغلقت باب الغرفة ونزلت أنا وفاطمة مسرعاً، وما أن نظرت إلى ذلك الرجل الذي كان موجوداً ليلتها، حتى توجه إلي

وبدأ بالسلام وقال لي: أهلا بك يا سيد كيف حالك وكيف كانت ليلتك في تلك الليلة؟ فقلت له: أتذكرني؟ فقال لي: طبعاً وكيف لا أتذكرك ؟

وأخذ الرجل يتكلم عن الكثير مما جرى في تلك الليلة وما دار في هذه القاعة من مشاكل ومناوشات صنعها الخمر، وبعد أن أنهى حديثه الممل وأنا أنتظره حتى ينهي كلامه، سألته عن جيهان وما إذا كان يعرف لها طريقاً؟ وهنا تمنيت لو أنني لم أسأله ولم أراه، فقد نظر إلي باستغراب وقال لي: عن من تتكلم؟ من هي جيهان؟ فأنت كنت وحدك في تلك الليلة وكانت المرة الوحيدة التي نستقبل فيها نزيلاً في غرف فندقنا دون أن تكون بصحبته فتاة .

فنظرت إليه وكأنني أريد أن أقتله وقلت له: لا أرجوك، إلى هنا وكفا، لحظة واحدة وأكون بحاجة بالفعل لمستشفى أمراض نفسية، ومن تلك الفتاة الجميلة التي كانت معي وضاجعتها في الغرفة وما تزال رائحة عطرها على الوسادة

موجودة إلى الآن؟ لما تخفونها عني لما هذه المؤامرة علي أفهموني أكاد أجن.

ضحك الرجل ونظر إلى فاطمة نظرة إحراج وقال: إنني لا أفهم عما يتكلم هذا الرجل.

فتوجهت إليه بغضب وأمسكت به وقلت له: أنت كاذب ومخادع ومتفق مع جيهان بأن تسحروني يا أيها المعربدون الأشرار.

.تدخلت فاطمة حينها بيني وبين الرجل وقالت له أعذره أرجوك، فهو بحالة نفسية صعبة، فلقد أضاعت تلك الفتاة عقله وجعلته لا يدرك ما يفعل، فقال لها الرجل: أتدرين أول مرة في تاريخ عملي في هذا الفندق نستقبل شخصاً من دون فتاة، ولكن في تلك الليلة كانت الفوضى عارمة لذلك استقبلناه .

سقطت عيني على الكرسي الموجود أمامي وصرخت: يا رب ماذا يحصل معي؟ هل هو حقيقة؟ أصابتني القشعريرة، إذا

لم تكن معي جيهان حقاً ، إذاً مع من كنت في تلك الليلة؟ ومن هي جيهان ؟

عندها تدخل مدير الفندق وقال لي :

- يا سيد أرجوك اهدأ قليلاً إن هذا الموظف مسكين ويظن أنكم من الشرطة ، لأن السيدة التي معك ـ قاصداً فاطمة ـ كانت قد ذكرت اسم ضابط في الشرطة وهذا الضابط يخيف كل أهل الحي .
- أنت تقول أنه ضابط بالشرطة وهذا يعني أنه يقوم بخدمة وحراسة الشعب.
- نعم معك حق ولكن ليس الشعب الذي يدخل فندقنا يا سيد ، فنحن بالنسبة له مصدر رزق دائم، وكلما كبرت مشاكلنا أكثر كلما أصبح رزقه أكبر، بصراحة هو أتى إلى هنا بالأمس وكلمني، وقال لي أن هناك رجلٌ أجنبي يبحث عن امرأة وأمرني أن أخفيها من هنا هذا واقعنا يا سيدي أرجوك لا تغضب مني .

قاطعته وأنا متجهم الوجه، جاحظ العينين، وقلت له: أين هي جيهان إذاً أيها المخادع، لماذا تخفوها عني؟ هل تسمعين يا فاطمة ماذا يقول ذلك المنافق، إنني لست أهذي إذاً ولم أكن أحلم، أين هي انطق أيها الكاذب .

فصرخ صرخة أسكتت صراخي وقال لي :

- يا سيد أرجوك أن تتركنا بحالنا نرى رزقنا على باب اللّه.
- هل هذا باب اللّه برأيك، وهل أنت تعلم من هو اللّه فالذي يعلم من هو اللّه لا يكذب .
- اهدأ أرجوك وتفضل نحتسي كأساً من الشاي ولن أتركك تخرج من هنا إلا وأدلك على من تبحث لو أخذوا رأسي، ولكن أرجوك اهدأ وكفاك غضباً فلا شيء بالدنيا كلها يساوي عذاب الضمير.

لقد كان جدي مختار هذه البلدة قبل أن تصبح حارة من حارات المدينة، وعندما توفي ترك لي أرضاً كبيرة أُجبرت على بيعها لأن أحد معارفي من

الأجانب شجعني أن أبني فندقاً سياحياً للأجانب بما أن المدينة كانت تتوسع وتتحول إلى مدينة سياحية، فقررت أن أعاند قدري، بعت الأرض واشتريت هنا قطعة أرض وبنيت فندقاً للزوار الأجانب القادمين إلى بلدي، مع الأسف فإن الدراهم التي كانت معي لم تعد تكفي حتى أكمل البناء، فقررت أن أذهب للبنك الوطني من أجل أن أقدم على قرض مالي أكمل فيه مشروعي الذي بدأت فيه، وعندما أوشكت على إنهاء المعاملات طلبوا أن آتي لهم بكفيل يكفلني على المبلغ الذي أريد أن أسحبه من البنك، فذهبت إلى صديقي الذي يحمل الجنسية الأوربية أطلب منه أن يكفلني بالبنك فصدمني برده علي بالرفض، فقد رفض أن يكفلني ولا أعلم لماذا مع أنه هو صاحب الفكرة، بعدها دعاني إلى حفلة عشاء وقال لي: نحن أصدقاء ولكنكم أنتم

القرويون لا تفهمون بالسياحة أذهب واعمل بالفلاحة فهذا أكثر شيء تفهم فيه يا صديقي.

فخرجت أكثر عناداً وقررت أنني سأنهي البناء بأي ثمن، بعت كل شيء بيتي، وجرّاري الزراعي، ومزرعتي الصغيرة، والبقرة، والحمار، وكل شيء يذكرني أنني يوماً كنت فلاحاً.

قررت أن أعيش بأجواء المدينة وأتحدى ذلك الأجنبي، لقد أكملت البناء وافتتحت الفندق، و لكن لم يدخله أحد من السياح فهو لا يطل على البحر وموجودٌ بين البيوت القديمة، وأنا لا أملك دراهم كافية من أجل الدعاية والإعلان، ومع ذلك أصبح الأجنبي يدخل فندقي ولكنه يدخله خلسة في عتم الليالي يضاجع الفتيات الريفيات المسكينات، واللواتي يبيعون أجسادهن من أجل لقمة العيش، فيا سيد ما جعلني أكذب عليك هو ما جعل تلك الفتيات تبعن أجسادهن، ألا و هو لقمة عيشي يا

سيد، أرجو أن تفهم كلامي وما أقصده، فأنتم أيها الحضر لا ترحموننا ولا تحبوننا إلا حين ترغبون في إرضاء غرائزكم فمن الممكن أن تنسوا أنفسكم وتتذكروننا .

قلت له: مالي ومال هذه القصة فهل ستتكلم أين هي جيهان؟ فقال لي: يا سيد لما لا تريد أن تفهمني، إن كل النساء اللواتي يرتدن هذا الفندق هن جيهان وإيمان وأسمهان ونورهان، يا سيد إن كانت تلك الملعونة قد سرقت منك شيء فأنا مستعد أن أعوضك عنه، فقلت له: نعم لقد سرقت مني قلبي ومشاعري، دخلت قلبي ولا تريد أن تخرج، تداعبني وأنا أغتسل في حمامي، تساعدني بخلع ملابسي عندما أريد أن أخلد إلى النوم، تشرب معي قهوة الصباح، وعندما أستعد لألمسها أجدها خيالاً كلما ركضت ألحقه يبتعد عني، لقد سحرتني تلك الفتاة لأنني خدعتها ولم أدفع لها المائة دولار، والآن أنا مستعد أن أعطيها كل شيء

وسأقبل قدميها وأعترف لها أنها انتصرت علي وهزمتني شر هزيمة .

وبينما أنا أتحدث معه، دخلت علينا فاطمة وقالت: لقد اتصل بي ضابط الشرطة و سئل عن الوضع وما إذا وصلنا إلى نتيجة. عندها ارتعب الرجل وقال لي: أرجوك سوف أعطيك عنوان جيهان ورقم هاتفها واتركني وشأني، إن هذا الضابط مجرمٌ ويستطيع أن يقفل لي فندقي الذي بعت الغالي و الرخيص لأجل بناءه .

أخذت منه رقم هاتف جيهان، و ما زاد تأكدي أني تذكرت أن آخر ثلاثة أرقام منه كانت الرقم خمسة لأنها ذكرت رقمها أمامي أول ما تعرفت عليها، حيث كانت تعطي رقمها لعامل البار.

لا أعلم لماذا يخاف الفقراء عندما تقال لهم كلمة الشرطة وكأن رجال الشرطة قد وجدوا لحماية الأغنياء فقط .

أخذت فاطمة وخرجت معها متوجهاً إلى عنوان جيهان وعندما اقترينا من عنوانها اتصلت معها فاطمة وقالت لها

بعد السلام بأن صاحب الفندق أعطاها رقمها لتعرفها على زبون أجنبي تحصل من خلاله على دراهم جيدة .

حيث حدثنا صاحب الفندق أن جيهان دائماً تقف عند باب الفندق تصطاد الزبائن الذين لم يتفقوا مع الفتيات بالفندق على الثمن، فهي كانت تذهب معهم بأقل الأثمان لأنها غير جميلة، كنت لا أصدق كلامه، وخاصة بعد أن أخذت رقم هاتفها، لأنني أعرف من هي الحسناء جيهان، فأنا مهما كنت بحالة من السكر فلن أنسى شعرها الأسود الذي سبحت فيه أصابعي في تلك الليلة، وما كنت لأصدق أنها رخيصة للحد الذي تكلم عنه ذلك الرجل، وهي بالنسبة لي أصبحت أغلا من كل شيء، فأصبحت أدعو اللّٰه أن يساعدني بحل هذا اللغز وأقول يا اللّٰه أنت رب موسى وعيسى ومريم ساعدني فلقد أضناني الهم .

وصلنا إلى العنوان بعدما أفاقتني فاطمة من توسلاتي للرب وقالت لي: هيا يا روميو لقد وصلنا من أجل أن تلاقي جولييت المفقودة.

ضحكنا أنا وفاطمة ضحكة البؤساء واستعدينا للمفاجأة، وبقيت انتظر ساعة تدق نواقيس بيغ بن و تبهر بصري أنوار برج إيفل وتنبت الزهور على امتداد سور الصين لتعلن جميعها قدوم ساحرتي التي زرعت الشوك فنبت ورداً وسقتني السم فكان دواءً.

ستأتي وهي تحمل بيدها شمعة الأمل، لكنني لم أعد أحتمل الانتظار فهرولي يا عقارب الساعة ويا أيتها الشمس أسرعي المسير إلى مستقبلي واطردي حاضري لقد تعبت من التفكير ومن أحلامي وخيالي الذي لا أسيطر عليه، حتى الطعام أصبح في جسدي ثقيلاً، وقهوتي كل صباح أشربها وكأنني في مأتم والكل حولي يبكي، هيا أيتها النسائم أسرعي بتلك التي سحرتني وحلي لغزي الملعون، ساعديني يا فاطمة حتى أخرج من لغزي الذي أثقل كاهلي، نعم كنت أكلمها بعيوني تلك الكلمات وأنا صامت.

منذ أن قيل لي من هي جيهان كانت عيوني تخاطب كل البشر وكأنها استبدلت وظيفة الشفاه بالكلام لتخاطب الروح لأنها لم تعد تحتمل السكوت .

بعد لحظات نادتني فاطمة، وقالت لي: انظر هل هذه هي من تبحث عنها؟ لقد أتت. فالتفت إلى الوراء لأرى من سحرتني وتمنيت لو أنني لم ألتفت ولم أرى ما رأيت، نظرت إليها وانتهى الكلام ورفض العقل التفكير حين رأيت امرأة ليس لها علاقة بساحرتي جيهان، فقد كانت قبيحة وشمطاء.

تعالي يا جيهان نذهب ونطير إلى آلهة السحر ونرجوهم أن يعيدونك كما كنت أرسمك في قلبي، .سندباد إن سندريلا اختبأت في جوف التنين في قاع المحيط، يا سندباد اضرب بسيفك بطن التنين واركب قارب العشق يصارع موج المحيط ويحارب الحيتان وأسماك القرش حتى يصل الشاطئ وعندما يصل يضيع بالغابات ليحاكي وحوش البراري آكلة لحوم البشر .

شعرت أنني أخترع قصة من الخيال حتى يعيش من معي فيها ويستمتع بأحداثها وعندما تنتهي تُنسى وكأن شيئاً لم يكن، لكنني أبخس المعلمين أمامك يا بطلة حكايتي التي غيرت كل شيء بحياتي ولم أعد أعلم إذا كانت خيالاً أم حقيقة .

كانت فاطمة تناديني، وكنت أرغب أن أكلمها لكن لساني كان يرفض النطق ويقول لفاطمة اسمعي العينين فأنا بعد اليوم لن أتكلم إلا حين ألاقي جيهان وأحل لغزي اللعين هذا .

فقالت لي فاطمة: يا سيد إنها جيهان التي تبحث عنها، هي تعرفت عليك، وهي التي صعدت إلى غرفتك ولا تدري كيف ولماذا، كأن عفاريت الدنيا على بساط الشياطين تطير بالفضاء وتدخل غرفتك .

وأكملت فاطمة الحديث: أخبرتني بأنك كل الليل كنت تتكلم ولكنك لم تكلمها، خلعت ملابسها واستلقت بجانبك ولكنك كنت تضاجع الوسادة وتتعانق معها كل

الليل وهي كانت تنظر إليك وتقول أنك كنت كالمجنون، وبعدها أعطيتها المائة دولار وخرجت معك من الغرفة، وتضيف بأنها لم تصعد معك إلى السيارة .

اكملت فاطمة كلامها: يا سيدي إن جيهان التي تتكلم عنها خيالٌ ليس له وجود ومن المؤكد بأنك مسحور .

وما أن نطقت كلمة مسحور حتى برقت السماء ورعدت فانتفضت من مكاني وقلت لها: لا ليس هذا بسحرٍ ولا بخيال ولكن أنا أصبحت على يقين أن السر في السماء التي تناديني.

يا فاطمة كل ما يحدث لي هنا لغز ويجب أن أفكك أسراره و أحله، لن أستسلم  للكذب والسحر والخيال، فعندما خرجنا من صالة الديسكو يوم رقصت تلك السوداء برقت ورعدت السماء، وعندما قابلت  تلك المرأة في مكتب الطيران أيضا برقت ورعدت السماء، وحين كنت مع جيهان أيضا برقت ورعدت السماء، والآن أيضا برقت ورعدت السماء، لا إن هذا ليس بخيال إنني أشعر أن السماء تناديني

وتدعوني للبحث عن جيهان أو عن شيء يخص أو فقدته جيهان.

- مع أنك منذ وقت وأنت صامت لا تتكلم ولكن عيونك كانت تقول شيء أكاد أفهمه.

- يا فاطمة إن العيون هي الأكثر بلاغةً وصدقً في الكلام، ولكن القلائل جداً من يتقنون هذه اللغة، فعندما تتكلم العيون يخجل اللسان لأن العيون لغتها لا تقول إلا الصدق ولا تعرف غشاً وتزويراً للحقائق، ولكن هناك بشرٌ لا يعترفون بلغة العيون لأنهم لا يعرفونها وعندما يكذب اللسان تفضحه العين لأنها لا تقبل تزويراً وخداعاً، وأنا الآن سأبدأ لأعيد الذاكرة إلى عيوني، لأن جيهان في آخر لحظة تركتها عندما أوصلتها لآخر محطة وخدعتها حين لم أدفع لها المائة دولار، كانت تكلمني بلغة العيون، وتخبرني عن كل ما سيحدث لي من بعد أن تركتها، وأنا لم أفهم عليها لأنني كنت استمع لما

ينطق به لسانها، لم أنتبه لما كانت تنطق به عيونها، ولكنني الآن أصبحت مدركاً أن جيهان كانت تقصد أن تقول لي شيئاً وأنا لم أفهم ما كانت تقوله، وهذا اللغز يجب أن أحله بنفسي ولن أتراجع مهما كلفني من تعب وعناء .

وفي ذلك اليوم عندما ذهبت للمستشفى لأرى أمي وأنا أشبك أصابعي بأصابع جميلتي فكتوريا والتي كانت محرجة لأنني أمسك بيدها ولكنها فهمت ظرفي وصدمتي. وبعد ما خرج الأطباء من غرفة أمي ودخلت الغرفة مع فكتوريا وأنا أمسك بيدها، نظرت أمي إلينا وتحول وجهها الشاحب إلى واحة زرعت فيها أشجار النخل والتفاح الأحمر، وشفاهها التي مزقها الأسى والألم ارتسمت عليها بسمة لم أراها على وجه أمي منذ ولدت، حينها اقتربت من أمي وقلت لها :

- يا أمي الغالية هذه هي فكتوريا .

نظرت إليها أمي وقالت لي :

- أشعر وكأنني أعرفها يا ولدي إن الأم عندما يذهب ولدها إلى مكان ما ترسل قلبها معه أينما كان وأينما يذهب، فقلب الأم هو النمام الذي يدخل الجنة فإن الله يكره النميمة ويجازي عليها ولكن الرب سمح لقلب الأم أن يكون نماماً على أولادها ويخبرها من دون أن يعلموا بفرحهم وكربتهم.
- أرجوك يا أمي لا تجهدي نفسك، فقد قال لنا الأطباء أنه يجب عليك أن تستريحي، ولم يقبلوا بدخولنا إليك لولا صديقي رئيس القسم.

نظرت أمي إلينا أنا وفكتوريا وقالت :

- يا ولدي وهل سأعيش أجمل من هذه اللحظة وأنا أرى الفرحة بعينيك مع هذه الفتاة الجميلة التي حين نظرت إليها شعرت وكأنني أحاكي أحداً من لحمي ودمي؟ سامحني يا بني لقد أتى مرضي في لحظة غير مناسبة فأنني بوجودي في المستشفى عكرت عليك صفو لقائك بهذه الجميلة.

- لا يا أمي أرجوك لا تقولي هذا فأنت أهم عندي من كنوز الكون يا أيتها الغالية.

توجهت أمي إلى فكتوريا قائلةً : يا بنيتي إن ولدي طيبٌ جداً وأنا قمت بتربيته بحذر، فهو يحب كل الناس ولا يعرف الغدر ولا الخيانة، ومن ستكون يوماً من الأيام زوجته ستكون سعيدة معه، كما أنني أمه راضيةٌ عنه، وأسأل اللّه أن يحميه ويعينه على دهره من بعدي .

فقلت لأمي: كفى أمي أرجوك إن فكتوريا خجولةٌ جداً.

قاطعتني فكتوريا وقالت: لا على العكس تماماً إن كلام أمي رائعٌ للغاية.

فابتسمت أمي وقالت: آه يا بنيتي ما أجمل هذه الكلمة من شفاهك، كم كنت أتمنى أن أسمعها من فتاة تناديني إياها، الحمد للّه يا أيها الرب أنك أطلت بعمري حتى سمعتها قبل أن أموت .

وبعدها قالت لي أمي : يا ولدي هل من الممكن أن تتركني وفكتوريا وحدنا قليلاً، فإنني بحاجة لأحدثها حديثاً نسائياَ خاصاً لا يليق بك أن تسمعه ؟

فقلت لها : حاضر يا أمي ولكن فقط لخمسة عشر دقيقة، فلن أنتظر أكثر من هذا وحدي .

خرجت من غرفة أمي وتوجهت إلى البوفيه التابع للمستشفى في الطابق السفلي أخذت قهوتي وكعكة التشيز كيك وبعد عشر دقائق دخل أحد أصدقائي البوفيه وسرقني الحديث معه إلى درجة أنني نسيت جلسة أمي النسائية مع فكتوريا وأن هذه الجلسة لن تنتهي ما لم أنهيها أنا .

ركضت مسرعاً وتوجهت إلى غرفة أمي، فتحت الباب ونظرت إليها فرأيتها نائمة، أخذت أتأملها بتمعن لأكثر من ساعة لدرجة أنني نسيت فكتوريا وأنني تركتها مع أمي، نظرت إلى أمي ولم أمل النظر إليها وأنا أدعو لها بالشفاء والعافية .

بعدها صحوت من غفوتي ولم أرى فكتوريا ، ذهبت مسرعاً للأسفل أبحث عن فكتوريا فلم أجدها فخطر ببالي أن أتصل معها لأرى أين هي.

عندما اتصلت بها قالت لي أنها مع سائق والدها يصحبها إلى البيت، فقلت لها: فكتوريا هل أغضبتك أمي بشيء أخبريني؟ لما لم تخبريني قبل أن تخرجي من المستشفى ؟

فقالت لي: لقد ذهبت للطبيب أسأله عن حالة أمك الصحية ، وبينما أنا بغرفته دخلت الغرفة، فرأيتك تتأمل أمك وأنت بحالة مرهقة فلم أشاء أن أزعجك، اتصلت بالسائق حتى يأتي و يوصلني إلى البيت، لقد سررت جداً بمعرفة أمك، وشعرت أنها أمي، وأصبح لساني يردد لها كلمة أمي وحده من دون أن أجبره على قولها حقاً أنها أم رائعة.

لم أفهم سر هذه العلاقة التي تكونت بين أمي وفكتوريا ، أصبحت فكتوريا كل يوم تأتي إلى المستشفى تزورها وتغسل لها الملابس وتساعدها في أشيائها الخاصة، كانت

تمضي أكثر أوقاتها مع أمي، كنت أشعر بالراحة عندما كنت أراها جالسة جانب أمي بالمستشفى .

أمضت أمي حوالي الشهرين في المستشفى حتى زال عنها الخطر بفضل الرب، في هذه الفترة تولدت بين أمي وفكتوريا ألفةً ومحبةً قد يُظن أن عمرها سنوات طويلة، أصبحتا تخرجان كل يوم إلى الحديقة العامة وعلى مدار سنة كاملة كانتا تتقابلان يومياً، أصبحت أمي بالنسبة إلى فكتوريا بمثابة أمها التي لم تعرفها، أما أنا وفكتوريا فكنا نلتقي مرة كل أسبوع على العشاء في مطعم ليلي بيوم العطلة، وبعض الأحيان كنا نلتقي مع أمي نحتسي القهوة بجانبها، حتى أنني أذكر يوماً دخلت عليهما وقاطعت خلوتهما فرأيتهما تتعانقان والدموع تملئ وجهيهما فعدت أدراجي لكي لا أزيد عليهما.

دخلت غرفتي والهم أثقل كاهلي لأنني لم أعلم ما سبب هذا البكاء والذي بقي سراً ما عرفته أبداً. لاحظت شيئاً واحداً أن فكتوريا تغيرت وأصبحت تجلس معي وكأنها في

مكان أخر و ليست معي، أذكر مرةً كنت جالساً معها احتسي القهوة في أحد نوادي السهرات الليلية فدخل واقترب منا ذلك الشاب الذي رأيته أول مرة بالمهرجان عندما دفعني بكتفي وأخذ فكتوريا مني، فطلب من فكتوريا حديثاً بعيداً عن سمع الحضور، ومن خلال تعابير وجهه وغضبه الظاهر من بعيد فهمت أن هناك مشكلة بينهما، لم يطل الوقت بذلك الحديث بين فكتوريا وبينه، فعادت بعد خمسة دقائق وهي غاضبة وخرج وهو يصرخ ويقول مهدداً: كما تشائين يا فكتوريا ستندمين .

سألت فكتوريا :

- ما بك ؟
- هذا الشاب يحبني ويريد خطبتي، وبين والدي ووالده مصالح مشتركة، وأبي يريدني أن أقبل به، ويصر علي ويقول أنه يريد هذا لمصلحتي وأنني سأكون سعيدةً بثروة ومكانة هذا الشاب، وأنا في حيرة من أمري، فأنا لا أريد أن أغضب أبي وأرفض

له طلباً و في نفس الوقت لا أرى سعادتي مع هذا الشاب.

- لما لا تحدثي والدك بوجهة نظرك لعله يقتنع ؟
- لقد حدثته مراراً وتكراراً وقلت له يا والدي ربما يأتي يومٌ وآتي أليك أشكو فيه همي وكربتي منه، فقال لي يا بنيتي من يمتلك المال لن تجدي معه ما يهمك ويزعجك . والدي يزين كل الأمور بالمال وبحسب زعمه فالمال هو من يجلب السعادة وبوجود المال تكون الحياة مستمرة وناجحة . لا أعلم لماذا الأغنياء يزينون السعادة بالمال.

وأخذت فكتوريا تبكي وتقول لي : لا أحبه ويريدون أن يُكرهوني عليه.

تأملتها وهي تبكي، كانت المرة الأولى التي استحسن فيها رؤية دمعة، فقد رأيت عينيها لؤلؤتين تزين الزهور في حدائق سليمان، كانت أمي قد حدثتني عن حدائق سليمان فقالت لي إن حدائقه فيها كل خيرات الدنيا، وزهوره ليس

لها مثيل سوى زهور الجنة وعدالته جمعت الوحوش الكاسرة مع طيور الزينة .

هكذا كانت حبيبتي فكتوريا وهي تبكي،حاولت أن أتغزل بها ولكن قَدّرتُ أن الوقت غير مناسب لذلك، إلا أنها أحست أن مشاعري تجاهها لم تكن عادية فنظرت إلي وقالت: أرى أن نحتفظ بعلاقتنا كأصدقاء ولا نحاول أن تتطور العلاقة أكثر من ذلك، لأنني أعتقد أنني سأرضخ في النهاية إلى رغبات والدي.

لم يكن هناك مشكلة لأننا كنا مع بعضنا، لأن الجميع يعلم أننا أصدقاء فقط، وبعدما تعرفت إلى أمي أصبحت صديقة العائلة، وكنت أنا في هذه الفترة أيضاً أزورهم في منزلهم .

قالت لي فكتوريا باكيةً: أعذرني يا صديقي، سأذهب إلى البيت لأنني أغضبت والدي مني وأخاف عليه لأن الغضب لا يناسبه في وضعه الصحي .

استأذنت أن أرافقها إلى المنزل، رفضت ذلك ولكننا اتفقنا أن نلتقي غداً عند أمي بالمنزل .

كانت فكتوريا حريصة جداً على رضا والدها وتحاول أن لا تغضبه بشيء، وكانت أيضاً تحب أمي لدرجة أنني أصبحت أشك أنها تحبها أكثر مني، أصبحت فكتوريا تقول أن أمي عوضتها عن خسارتها بأمها، وهي تشعر بأن أمي لا تفترق بشيء عن أمها التي فقدتها.

إن النساء في علاقاتهن مع بعضهن يختلفن كلياً عن الرجال، فإن الرجل من النادر أن يصبح صديقاً لولده لأنه دائماً يحب أن يكون السيد على أبنائه، وعلى الأبناء إطاعته دون تردد حتى لو كان مخطئاً، أما عند النساء الأمر مختلف تماماً، فعندما تنضج الابنة وتصبح فتاةً صغيرة تبدأ الأم صداقتها مع ابنتها، وتصبح الفتاة تشكو لأمها همومها وعواطفها، أما فكتوريا فكانت محرومة من هذه المتعة ولقد وجدتها مع أمي، فأصبحت أمي بالنسبة لها هي الأم والصديقة، فكانت تلتقي بأمي أكثر مما تلتق بي وفي

أغلب الأحيان أراها موجودةً عند أمي تجالسها وأنا لا أعلم، أو أن تقول لي أمي كانت فكتوريا عندنا.

كانت فكتوريا تقول أن النساء في المحيط الذي عاشت فيه لا يوجد على لسانهن سوى المشاريع التي يقوم بها أزواجهن، ولم تستطع فكتوريا الانسجام معهن نهائياً، لأن طبائعهن لا توجد فيها الإنسانية، لا توجد بطبائعهن سوى الدراهم التي لا يهم كيف تأتي ومن أين تأتي المهم عندهن أن تأتي لذا رأت فكتوريا بأمي ما لم تجده عند تلك النسوة فاختلست مني الصداقة وزرعتها في قلب أمي لتكون صداقة مثمرة جذورها كجذور السنديان لا يقتلعها سوى الرحيل.

عادت فكتوريا إلى والدها وتصالحت معه في حفلة عشاء أقامها والد ذلك الشاب الذي يريد خطبة فكتوريا وهو وزير الأشغال العامة في البلد وكان رجلاً متسلطاً يعمد في رزقه وسطوته على أخطاء الفقراء .

فكانت هذه الحفلة الوحيدة التي لم أكن حاضراً فيها مع فكتوريا بعد أن تعرفت عليها، لأنها كانت تدعوني إلى جميع مناسباتها الخاصة، وكثيراً ما كنت أجتمع مع هذا الشاب وأهله في مناسبات فكتوريا حتى أن هذا الشاب استوقفني مرة وهددني بأن أبتعد عن طريق فكتوريا وإلا فسيفعل معي شيءً لا تحمد عقباه، لم أخبر فكتوريا بالموضوع فلم أكن أريد أن أزعجها، و رددت على تهديده بقولي: يا سيد أنا لا أخاف تهديدك ولكنني أريد أن أقول لك بأنك وبهذه الطباع لن تستطيع الوصول إلى قلب فكتوريا، إن فكتوريا ملاك من السماء فلما لا تكون أنت سمائها وتبعد نفسك عن العنجهية وتخفف من غرورك، فأن المال والسلطة أيها السيد لا تملك شراء قلوب المحبين، فمن يحبك حباً صادقاً ليس بحاجة إلى أموالك ولا السلطة وفكتوريا فتاة بسيطة وتحب البساطة فكن لها كما تريدك ستحصل على قلبها الكبير صدقني لست أنا العقبة

إلى طريق قلب فكتوريا إنما تصرفاتك المغرورة هي من تصنع بينكما هذا الجدار السميك .

نظرت إليه فرأيت نفسي وكأنني أكلم حجراً أسوداً مغروراً وقاسياً ، لا ينال منه الحديث والمنطق ولا يدخل عقله شيء إلا منصب أبيه ومكانة أمه التي هي صاحبة شركة للتنقيب عن النفط.

بعد احتكاكي بهذه العائلة من خلال دعوات فكتوريا لي إلى حفلاتهم المستمرة، اكتشفت أن أم هذا الشاب هي من أفسدت أخلاقه، لأنها كانت شخصيةً في قمة البراءة من الأخلاق .

أذكر أنني كنت مرةً في حفلٍ لعيد رأس السنة حيث كانت فكتوريا قد دعتني و كانت الحفلة مقامة في منزل عائلة ذلك الشاب، وكنت أحاول ما استطعت أن أملأ فراغها وأسليها وأسعدها.

كانت قد مضت ساعةٌ من العام الجديد ، والكل مشغولٌ بالرقص والشراب والضحك فضاقت بي نفسي وقررت أن

أخرج إلى حديقة المنزل قليلاً لأستنشق هواءً نقياً ، فوقعت عيني عبر نافذة مكتب والد ذلك الشاب الذي يريد خطبة فكتوريا على أم هذا الشاب في وضعٍ منافٍ للحشمة مع شابٍ تكبره على الأقل بعشرين سنة ، كان هذا الشاب من المدعوين فكان له قوامٌ جميل وأناقةٌ لافتة ووجهٌ حسن، كانت مهمة هذا الشاب مراقصة النساء اللواتي في الخمسين والستين من العمر ولكن هذه السيدة لم يكفيها ذلك ورأت أنها تستطيع أن تشتري أي شاب بمالها ، كما ظنت أنها ستستطيع أن تشتري فكتوريا لأبنها .

لا يهم فقد عدت إلى الحفل ونظرت إلى فكتوريا فرأيتها تبكي سألتها :

- ما بك لما تبكين ؟
- لا شيء ولكن أشعر بأني لن أكون سعيدةً يوماً من الأيام.
- لماذا هل بسبب هذا الشاب؟ أتركيه وابلغيه أنك لا تريدينه.

- الموضوع يا صديقي ليس موضوع الخطبة ولكن حياتي عذابٌ منذ أن ولدت إلى يومي هذا، فهي سلسلة من الحلقات إن عزلت واحدة خسرت كل من حولي وكل ما جمعت بحياتي، فأنا لا أريد أن أغضب أبي فهو بالنسبة لي كل شيء في حياتي.
- فكتوريا أنت تكذبين، أنت تخافين على نفسك منهم ولا تخافين عليهم منك، هم في بحرٍ من الأوهام وأنت تراقصين أوهامهم، هم في ظنهم يملكون السعادة من خلال المال والسلطة ولكنهم لا يدركون السعادة في الحقيقة كيف تكون، أنت تعومين في بحر عذابهم وكأنك تتلذذين في عذابك معهم، ابحثي يا فكتوريا عن السعادة لنفسك فيسعد والدك، اليوم دورك أنت في مساعدته على الخروج من دوامة الأحزان وفراق زوجته.

صرخت في وجهي فكتوريا وقالت :

- لا أنا لا أكذب.

- بلى أنت تكذبين ولا تدرين أنك تكذبين.

شددت على ذراعها بأصابعي التي كانت تمسك بها وكأنها لا تريد أن تتركها.

- اتركني أنت تؤلمني .

فهمت حينها أنني صنعت خطيئةً لا تغتفر، وكان دعائي للّه أنه لو أصاب يدي الكسر قبل ذلك . لا أدري لما تصرفت هكذا معها في تلك اللحظة ولكن كانت غايتي أن أخفف عنها كربتها وأمسح لها دمعتها وتوقعت أنها لن تسامحني حيث أنها لم تأتي في اليوم التالي لترى أمي كما جرت العادة.

شعرت أمي أن هناك شيئاً ما قد حدث ولكنها تصنعت عدم الانتباه لعدم زيارة فكتوريا لها فردت علي عندما سألتها :

- هل أتت فكتوريا اليوم يا أمي أم لا؟

- مسكينة لا بد وأنهم أتعبوها بالحفل يوم أمس، كم هي رائعة فكتوريا أشعر وكأنها خرجت من

جسدي وأنني لبيت رغبة والدك بأن تكون لك أخت
جميلة فأنني رأيته بالحلم يوم أمس وكان سعيداً
جداً عندما شاهدها في بيتنا، لا أشعر بأحدٍ غريبٍ
في بيتنا، أراها وكأنها من لحمي ودمي وهي البنت
التي أرادها أن تكون والدك ابنته .

أخذت أمي تحدثني الكثير عنها، لقد كان حديثها كله عن فكتوريا وأخلاقها وجمالها ولكنني لم أكن مدققا في حديثها، .كنت مستلقياً في فراشي ويوليا تجهز طعام الغذاء وأنا أفكر بنفسي وكيف سأبدأ حياةً جديدة لا توجد فيها جميلتي فكتوريا.

كنت أتذكر والد فكتوريا وصديقه صاحب السلطة والمال، وكيف يتعاملون مع فكتوريا وكأنها من إحدى صفقاتهم التجارية، ولكنني كنت أكن لوالد فكتوريا كل الاحترام والتقدير لولائه لأم فكتوريا زوجته وتفرغه لتربية ابنته فأصبحت أعذره لخوفه على فكتوريا وأيضا أعذر لفكتوريا احترام كلام والدها وعدم إغضابه بشيء

لأن هذا الأب الذي يملك كل ملذات الحياة من مال وسلطة ومئات الفتيات اللواتي يرغبن فيه زوجاً حتى الآن ومع مرور عمره بقي متمسكاً بولائه لزوجته وتفرغه لتربية أبنته، فجعله حبه لأبنته شخصاً متطرفاً بأي شيء يخص ابنته حتى ضاع صوابه .

السعادة التي ظن نفسه يصنعها لابنته أضحت تعاسةً، فكانت فكتوريا تتخاصم مع ابن صديقه المغرور عشرات المرات، فيرد دائماً بأن يجعل من ابنته مخطئةً ويأخذها من يدها ويطلب منها أن تعتذر على الرغم من عدم مبادرتها بالخطأ.

إن والد فكتوريا كان يحب هذا الشاب لأنه تربى على يديه مع فكتوريا ، حيث أن العائلتان أصدقاء وجيران منذ زمن، وكان يصطحبه معه عندما كان يذهب في رحلة استجمام مع فكتوريا ، لقد رسم مخططاً لفكتوريا مع هذا المغرور منذ أن كانوا أطفالاً ، فهو يظن أن هذا الشاب سيكون

وفياً لفكتوريا كما كان هو وفياً لزوجته ولكن في الحقيقة لم يكن ذلك الشاب كما يظنه .

حتى أن أخلاق والد هذا الشاب كانت على العكس تماماً من أخلاق والد فكتوريا، فقد كان زير نساء وطماعاً وليس في قلبه رحمة أو شفقة، ولكنني لا أنكر أنه كان كريماً و كثيراً ما كان يقدم لفكتوريا الهدايا والذهب وفي كل صباح يأتيها منه باقاتٌ جميلة من الزهور الطبيعية الرائعة، طبعاً لم يكن هو من يأتي بها لفكتوريا بل كانت إحدى شركات الزهور التي تعمل بتوزيع الزهور إلى المنازل، أما أمه فحدث ولا حرج، ليس عندي ما أقوله عنها سوى أنها كائنٌ يحب جمع المال ومضاجعة الشبان وكانت تتردد إلى نادي يعرى فيه الشبان حيث يقومون بعروض غير أخلاقية.

أما الوزير والد هذا الشاب المغرور فكان لا هم له إلا نهب البلد التي هو وزيرها وجمع مال أهل البلد أكثر من حل مشاكلهم، وأعتقد بأن لديه أزمة نفسية بأن يصبح يوماً

أغنى من زوجته، حقاً كم هي مسكينة فكتوريا، قليلة هي  الأيام التي لم أرها باكية وأنني واثقٌ من أنها كل يوم تبكي مختبئة وراء ستائرها، كنت أتخيل بسمتها في أول مرة أراها وأقول: يا ليتني لم أعرفها لبقيت بنظري أسعد النساء، .لما يتاجرون بعواطفها؟ لما يبيعونها بأرخص الأثمان ويرمونها للذئاب تنهش لحمها؟ وهم يضحكون وينتظرون كفة من ستنتصر ولا يعلمون أنه إن انتصر الذئب خسروا أغلى  ما لديهم وإن انتصرت ضحيتهم لن يستطيعوا أن يلملموا جراحها..

تركت فاطمة وزوجها فتاح بعد ما قابلت جيهان المزيفة التي لا تملك ولا صفة من أوصاف جيهان جميلتي وعدت أدراجي إلى فندقي الذي أنزل به وأنا منهكٌ ويكاد القهر يفترس قلبي وحال ما وصلت غرفتي استلقيت على سريري ليسرقني النوم من شدة التعب وكأنني ميت.

صباحاً تبادلت التحية مع صاحب الفندق فهو رجلٌ طيب ويحب أهل بلادي لأنه درس فيها ولا ينسى المعروف، كما وكانت تعمل لديه إحدى العاملات من بلدي، كانت فتاةً جميلة وأنيقة بمظهرها وإنسانيتها ولها في قلبي مكانة خاصة .

ركبت التاكسي بعدها وتوجهت إلى منزل فاطمة وفتاح زوجها كوني عندما تركتهم يوم أمس كنت على موعدٍ معهم في بيتهم الموجود في حارةٍ صغيرة وقديمة، كانت أول مرة ترى عيوني مثل هذه المنازل ولم أكن أعتقد أن هناك فقراً كهذا وبشراً تعيش في مثل هذه البيوت، وأنت تنظر إليها يهيأ لك أنها ستسقط فوق رأسك، أما الطريق فكان يصعب على الماعز المرور فيه، أصبحت أتمتم وأنا أرى هذه المشاهد، أين الدولة من هذا تذكرت حينها والد ذلك الشاب الذي كان ينافسني على فكتوريا وزير الأشغال في الدولة فقلت لنفسي هؤلاء الأغنياء يبنون أمجادهم على بؤس

الفقراء يسرقون مالهم لبناء قصورهم ويزينوا شوارعهم ويستعبدون الفقراء من أموالهم .

وصلت العنوان الذي تسكن فيه فاطمة بعد أن سألت صاحب الحانوت عنها، فتحت لي الباب وفي وجهها بسمة تشعرك بالأمل والطمأنينة دخلت ذلك البيت الذي لا يمكن أن تسميه بيتا، فكان بيتها عبارة عن غرفة واحدة وهذه الغرفة هي للضيوف كذلك للنوم وللأطفال أما المطبخ فكان عبارة عن متر ونصف المتر حتى أخذت منه زاوية للحمام وهناك كرسي من حديد أعتقد أنه من أجل أن يغتسل عليه زوج فاطمة الكسيح، كنت أنظر إلى هذا الشقاء بعيون الأغنياء التي لم تشاهد يوماً سوى القصور والحدائق الكبيرة ،ولكنني شعرت بهذا الكوخ الصغير حباً وسعادةً ووفاءً أكثر بألف مرة من كل ما تحتويه تلك القصور من عزٍ وجاهٍ ومال.

كنت أتأمل هذا البيت بينما كانت فاطمة تحضر طعام الفطور، وزوجها كان في الحمام الذي هو عبارة عن لوحين

من الخشب وتغطي سقفه ألواح من مادة الزنك على ما أعتقد وبابه كان عبارة عن لوح من الكرتون المضغوط. خرج منه فتاح بعد قليل من دخولي منزلهم فرحب بي أجمل الترحاب وضمني بحرارة وكأن لقاؤنا قد مضى عليه زمن و ليس كان بالأمس.

أتت فاطمة بعد قليل وهي تحمل بيديها طعام الفطور الذي لم أرى أطيب منه في القصور عند الأغنياء، أصبحت فاطمة وزوجها يطعمونني بأيديهم مثل طفلٍ صغير، حتى أنه لم تسنح لي الفرصة لأن أكل بيدي وكأنهم كانوا قد اتفقوا على أن لا يفسحوا لي فرصة لأمسك الطعام بيدي، كانوا يطعمونني وبسمتهم تكاد تزلزل سقف غرفتهم الخشبي رأيت كرماً ليس له مثيل وسعادة لم أشعر فيها من قبل فقلت لهم:

- أتدرون إن جمعتنا على هذه الوليمة أشهى وأغنى بكثير من ولائم الأغنياء .

- كفاك تكلماً عن الأغنياء فتصفنا بالفقراء، نحن لسنا فقراء نحن أغنى أغنياء الدنيا حيث أملك حبيباً يحبني وأحبه، فلو عشت معه في مغارة يقتلنا بردها نشعر بأننا في جنة الدنيا حين تضم صدورنا بعضها.
- رائع يا فاطمة فقد أصبحت شاعرة.
- لا لست شاعرة ولكن الحب عندما يكون حباً نقياً ينسيك فقرك ويغذي لسانك بالكلمات الطيبة.

قاطع الحديث زوجها وفتح موضوع جيهان وطلب مني أوصاف جيهان، قال أنه تحدث لصديقه ضابط الشرطة فوافق أن يكثف البحث عنها وطلب مواصفاتها من أجل أن يرسمها رسام المباحث، ولكنه كذب على ضابط الشرطة عندما سأله ماذا فعلت من تسمى جيهان بالأجنبي، فقال له إنها لقد سرقت منه جواز السفر وبعض الدولارات، لأنه لم يكن سيوافق على البحث عنها وتضييع الوقت وإشغال السلطة لولا أنه لم يقل له هذا الكلام .

فقلت له: لا بأس عليك المهم أن أجدها .

ولكن إحساسي الداخلي أخذ يقول لي بأنني لن أجدها، وأصبحت مقتنعاً بأن جيهان غير موجودة لكنني وافقت معه كالغريق الذي يتعلق بقشة، تابعت حديثي له بأني سأتوجه اليوم إلى الفندق ذاته وأعاود سؤال العاملين هناك .

دخلنا ذلك الفندق، وكان العاملون به في حالة خوف و ارتباك، ولم يكون دخولنا إليهم محل سرور، وما إن دخلنا الفندق حتى قابلنا صاحب الفندق وقال :

- أرجوك يا سيد إذا أردتم غرفة فهذا مفتاحها من دون مقابل، أما إذا أردتم السؤال عن شيء ما فليس عندي مكتب استعلامات، أرجوكم اتركونا نرى رزقنا.

كان كلامه شديد الإحراج لفاطمة التي نظرت بعيون تكاد أن تدمع من شدة حرجها من كلامه .

- يا سيد نحن لم نأت فندقك من أجل النوم فيه وهذه السيدة تكون أختي ولا نريد أن نجلب لك مشاكل

أريد فقط أن أعلم أين السيدة التي كنت معها في إحدى غرفكم والتي ذهبت معي بالسيارة .

- يا أخي أقسم بالله لم تكن معك امرأة دخلت الفندق و خرجت وكنت وحدك وليس لنا مصلحة بأن نخفيها عليك لو كانت موجودة .

فقالت له فاطمة : اهدأ يا عماه نحن لا نقصد أن نكذبك أو نسبب لك مشاكل نحن نسأل وأنت أجبت .

نظرت فاطمة بوجهي وقالت لي بصوت يشبه الهمس اترك الناس ترى رزقها أرجوك فهم يخافون من شكاوى الأجانب لأن الشرطة لا ترحمهم وخاصة أنهم في مدينة سياحية .

نظرت إلى فاطمة بتمعن وشعرت بأنها لم تعد تصدّقني أصابني بعض الخمول التفت إليها وقلت:

- أنني أعلم بما تفكرين الآن، فأنا يا فاطمة أريد أن أنسى هذه القصة، ولكنني ما إن أحاول أن أنسى حتى تحضر بوجهي كل عفاريت الدنيا قائلةً: لا

تحاول أن تتراجع، يا فاطمة أشعر وكأن الجلاد يضربني بسوطه.

- ها نحن قضينا من الوقت الثلاث ساعات تقريباً بالفندق وسألنا جميع العاملين فيه والكل أجمع على أنك كنت وحدك ولم تكن توجد معك فتاة في تلك الليلة، وكل من نسأله يسخر منا !

وبعد برهة توجهت إلي فاطمة وقالت: ما رأيك أن نسأل شيوخ الجن لعلهم يساعدوننا؟

فقلت لها بغضب : أسفي عليك يا فاطمة أصبحت تظنين أنني مسحور، أنا يا فاطمة لا تسحرني كل شياطين الدنيا، فأنا محمي من الرب، كانت أمي كل يوم تشعل شمعة وتصلي للرب أن يحرسني وأنا أؤمن بأن الرب لا يرفض طلب لأمي تلك المرأة المؤمنة التي أمضت حياتها في خدمة البشر لإرضاء ربها .

صرخت في وجه فاطمة وخرجت راكضاً ولم ألتفت إلى صوتها الذي كان يناديني:

- قف يا سيد لم أكن أقصد إزعاجك بالحديث أردت التخفيف عنك أنا مخطئة أرجوك.

فقلت بصوتٍ عالي وأنا أمشي:

- كفى أنني أريد أن أذهب إلى غرفتي، أريد أن أكون وحدي، فغير قدرة الرب لن تستطيع إيقافي عن البحث حتى أجد جيهان .

دخلت غرفتي متعباً منهكاً واستلقيت على سريري لأنام بعض الوقت ولا أدري لماذا أصبحت أتذكر علاقتي مع زوجتي وأيضا علاقتي مع أبيها وكيف تكون علاقة الأغنياء مع بعضهم، حقاً أنني كنت بحاجة ماسة للنوم الذي على الفور أغلق عيوني وأدخلني في سبات ظننت أنني يوماً لن أخرج منه التقيت في أحلامي مع أمي وهي تقول لي :

- ولدي أنت تبحث عن جيهان؟
- نعم يا أمي أنني ما زلت أبحث عنها.
- ولدي إياك أن تتوقف عن البحث حتى تجدها.

كنت أسمع أمي وهي تقص علي قصة جيهان ولكن بصوتٍ غير مسموع، كنت أحاول الاقتراب منها أكثر وأصرخ يا أمي إنني لا أسمع شيئاً، كانت عيوني تريد اليقظة وأنا أقول لا أريد أن أصحو قبل أن تكمل لي أمي قصة جيهان، انتهى حلمي ولم أفهم من أمي شيئاً إلا ما رأته عيوني بالحلم.

استيقظت من نومي لأبقى في فراشي أتذكر ما يجري معي وحينها تذكرت أنني نسيت يوم ميلاد زوجتي التي وعدتها بالحضور إليه، وفهمت أن هذه المرة سيكون عقابي معها عسيراً، وأبوها سيتكلم معها بما يشاء عني فهو ينتظر خطأً مني، إنها لن تغفر لي هذه المرة مهما كانت مبرراتي .

تجاهلت موضوع زوجتي وقررت أن أبحث عن جيهان وحدي، ورسمت خطةً للبحث تبدأ من تجوالي في كل النوادي الليلية والبحث عنها، فأنني غير مقتنع أن تكون قد اختفت من كل المنطقة، مع أنني لا أعلم لماذا أبحث عنها وعن ما أبحث، فكل ما أعلمه عنها أن اسمها جيهان وقد يكون

هذا الاسم أيضاً مزيفاً كما قالوا لي في الفندق بينما أنا غارق في تفكيري غضبت السماء من جديد ورعدت وبرقت وعادت ترقص بوجهي العفاريت .

إن تركي لفاطمة بهذه العجلة والذهاب إلى البيت والغرق في النوم لأرى أمي في سباتي وسؤالها لي عن جيهان لم يكن كل هذا عن عبث ولم يكن فيه سحر كما قالت فاطمة، لذا سأكمل بحثي عنها وأعمل بوصية أمي لي بالحلم ومن دون مساعد فاطمة الطيبة وزوجها لأن قصتي مع جيهان لن يقبلها العقلاء، لذا سأكون المجنون الوحيد وصاحب هذا القدر وأحتفظ بسري لأنني عرفت إذا علمت السلطة التخصصية بموضوعي ستنقلني إلى مستشفى الأمراض النفسية، لذا حلقت ذقني وارتديت ملابسي الأنيقة كالعادة وقررت أن أبحث عنها في البارات بعد ان فرغت من بحثي عنها على شواطئ الأطلسي و في أحواض وادي السوسن دون جدوى.

لم أجدها حتى في مشاتل الطماطم حيث ذهبت بي هواجسي أن ظننتها مختبئة بين الأوراق الخضراء، فأصبحت أقدامي تعد الهكتارات الزراعية سألت عنها كل أهل الريف والمدن، كنت أمشي هائجاً خيالي يصرخ في الأسواق والساحات أين أنت يا جيهان أطلقي سراحي فكي قيدي إنني تعبت من البحث عنك، أخرجي من مضجعك وقولي ما تريدين، أمسحي عن حقدك الغبار لأخرج من مصباحك السحري القديم وأقول لك شبيك لبيك عبدك بين يديك.

إن كنت في أعماق البحر يا سيدتي دعيني أغرق إليك وإن كنت في التراب حوليني إلى صلصال لأصنع منه تمثالك وإن كنت بين البشر تراقبيني وتتلذذين في عذابي أقول لك أنك قد ربحت ولم يبق في جسدي شيء لم تضنيه بعذابك، أرجوك اظهري يكفيني عقاباً، لقد نسيت زوجتي التي أحبها وولدي الذي اشتقت إليه افعلي بي ما تشائين ولكن أرجوك اظهري يا سيدة العذاب .

هكذا حدثت نفسي وأنا في خلوتي، بعدها جهزت نفسي ودخلت إحدى البارات، كان هناك مطربٌ يغني ويرقص الساهرون على أغنياته كما و يصعدون إليه ويعطونه المال من أجل التحية لبعضهم، تقدمت من المطرب ورميت إليه بضع دراهم وقلت له سلام إلى جيهان من عبدك المتيم يقول لك تعالي إلى أحضانه التي امتلأت بالشوك بعدما كانت زهوراً، سخر مني المطرب ولكنه أخذ يعلن ما أرغب فيه، تقدمت مني إحدى الفتيات الموجودات بالصالة وهي تضحك وتقول لي أنا جيهان، فقلت لها لن تكوني جيهان ولا شبه لك بها، قد تشبهينها بالجسد ولكن لن تكوني في روحها فأنا أبحث عن جيهان الروح والجسد .

بعدها خرجت إلى مقهىً آخر، وأخذت أصرخ في مكبر الصوت: جيهان أين أنت يا جيهان، أنا عبدك وخادمك، امسح حذائك بجفوني كل يوم، أغسل الرموش في عينيك بلساني، إذا لم تكوني حبيبتي فمن تكونين؟ .

ظننت أن كل من حولي بكى على حزني ولكنني نظرت إلى السكارى فرأيت الكل يضحك ويسخر مني، بعدها أتى الحراس وطردوني خارج المقهى.

خرجت من باب المقهى وأنا أبكي والهم أثقل جسدي، فخطرت ببالي الطيبة فاطمة وزوجها حيث كانا الوحيدين اللذين شعرا بحزني وشعرت أنني بحاجة لهما ولكنني لا أريد أن أزعجهما في آخر الليل فكتبت رسالة على الهاتف النقال لأرسلها إلى فاطمة كان فحواها أنني تعبت من البحث عن جيهان يا فاطمة مللت البحث عن جميلتي ولا أحد يريد أن يصدق ما أنا فيه من شوق إليها .

وهنا كانت كارثتي التي لا أدرك لها مخرجاً مع زوجتي فكتوريا، فقد أرسلت الرسالة التي كتبتها لفاطمة إلى زوجتي فكتوريا بدلاً منها والتي اتصلت بي مباشرة وقالت لي: شكراً يا زوجي الحبيب على هذه الهدية الرائعة في يوم ميلادي. قالت لي هذه الجملة وأغلقت السماعة في وجهي .

كم أنا خجولٌ من زوجتي حبيبتي أم ولدي التي كتبت لا تذكر اسمي بعد اليوم ولن أغفر لك كل العمر .

لا أعلم لماذا فعلت هذا مع زوجتي التي لم أعرف سواها من كل نساء الدنيا آه ما أروع وما أطيب لذة العشق عندما يختلط الحزن بقبلات الحبيب .

كانت فكتوريا تذهب لزيارة أمي بفترات متقطعة بعد شجاري معها أخر مرة في يوم رأس السنة عندما شددتها من يدها وكانت وكأنها تختار الساعات التي لا أتواجد فيها بالمنزل لتذهب لزيارة أمي فكنت كلما آتي إلى البيت أشم رائحتها العطرة فأسأل أمي ويوليا الممرضة فيقولان لي كانت فكتوريا هنا.

كان قلبي يدلني على وجودها كنت أرغب بالاتصال بها ولكن كبريائي وخجلي منعاني من ذلك، وكنت كثيراً ما أفقد الأمل في وصالي إليها ولكنني عندما آتي إلى البيت وأسمع أنها كانت عند أمي يتجدد الأمل بداخلي من جديد

وينبض قلبي وأحس بارتعاش جسدي  وأقول لنفسي ما تزال أمامي فرصة من الأمل لوصالي بجميلتي فكتوريا. مر فترة شهرين على شجاري معها في آخر مرة يوم رأس السنة حين عدت إلى البيت من النادي الليلي الذي اعتدت على ارتياده بشكل يومي بعد شجاري مع فكتوريا التقيت بالشارع مع يوليا الممرضة المشرفة الصحية على أمي كانت ذاهبة إلى الصيدلية لتحضر الدواء لأمي، سألتها عن حالة أمي اليوم فقالت لي أن أمي كانت بخير قبل أن تقرأ الجرائد اليومية فقلت لها: وماذا كتب في الجريدة وقد أغضب أمي؟ فقالت لي: ألا تعلم؟ فقلت لها: أنني لا أعلم لأنني لا أتصفح الجرائد بشكل يومي. فقالت لي يوليا: أنهم في جريدة اليوم يعلنون عن حفل خطبة فكتوريا من ابن ذلك الرجل صاحب السلطة بعد شهر من تاريخنا هذا .

لقد فاجئني الخبر وهز كياني وشعرت أنني أرغب في الموت، فهذا الخبر نزل كالصاعقة على أسماعي، ولكنني تماسكت بعض الشيء حتى أتفهم من يوليا الحديث

بالضبط، إن يوليا كانت بالنسبة لي ولأمي واحدة من البيت، ولا نعتبرها سوى أختاً لي وبنتاً لأمي، فكانت دائماً تشاركنا أفراحنا وأتراحنا وكنت أنا وأمي نثق بها إلى أبعد الحدود، فقلت ليوليا: وهل أخبرتكم فكتوريا عن هذا الموضوع؟ فقالت لي: لم تخبرنا وهذا ما نستغربه في سماعنا للخبر ،فهي كانت عندنا منذ يومين وأخذت تحدثنا عن أشعارك وكلماتك الجميلة التي لا تفارق أسماعها .

أجلت همومي وحزني لسماع صاعقة هذا الخبر الذي شعرت أنني غير قادر على الحركة بعده حتى أطمئن على صحة أمي، تركت يوليا تكلم نفسها بالشارع وركضت إلى البيت متوجهاً إلى غرفة أمي، فتحت الباب وألقيت عليها السلام ولكن ولأول مرة لا ترد أمي علي السلام وتستقبلني ببسمتها التي أرى أملي من خلالها عندما أكون في همي وكربتي، اقتربت منها فشعرتها غير طبيعية وكأن النوبة عادت إليها من جديد بعد أن اجتازت مرحلة الخطر في المرة السابقة عندما كانت بالمستشفى، وعلى الفور اتصلت

بصديقي الطبيب الذي يسكن قريباً من منزلي وأخبرته عن تأزم حالة أمي وفي مدة زمنية قصيرة جداً جاء صديقي الطبيب وبدأ بفحص أمي، فقال لي: كم من الوقت وهي بهذه الحالة؟ فقلت له: لا أعلم بشكل دقيق ولكنني لا أعتقد أكثر من خمسة عشر دقيقة لأنني التقيت مع يوليا بالطريق وهي ذاهبة لجلب الدواء لها وكانت قبل أن تذهب لا بأس عليها.

ارتبك صديقي الطبيب مع أنني كنت أرى أن أمي ما زالت تفتح عينيها وخرج يتكلم بالهاتف وتركني أكلم أمي وهي لا ترد علي وكأنها لا تسمعني، وبعد وقت قصير جداً دخل رجال الإسعاف وأخذوا يعطونها الأوكسجين حينها أدركت أن أمي في وضع حرج جداً هذه المرة وأن صديقي الطبيب عندما خرج كان يتصل بالإسعاف.

وعلى الفور حملوا أمي ووضعوها في سيارة الإسعاف وصعدت بجانبها إلى السيارة التي كانت متوجهة إلى المستشفى، أدخلوها غرفة العناية المركزة مرة أخرى حيث

كان ينتظرها أطباء يرتدون الأقنعة البيضاء وممرضات يحملون كل ما يتطلب من أدوات الجراحة ركضوا بها إلى غرفة الجراحة وسلبوها من بين يدي التي كنت أحتضنها فيها.

شعرت بنفسي ضعيفاً جداً لم أستطع أن أفعل شيء كأن هناك قدر قد كبل يدي وزرع الشوك في عنقي، أصبحت لا أطيق حتى الملابس على جسدي، شعرت أن عصافير الدنيا التي لم تتركني منذ ولدت طارت من حولي ولم أكن أفهم لماذا لم تركن العصافير إلى النوم في عشها والليل يعلن ظلامه الدامس.

أصبحت أكلم نفسي وعقد الشوك في عنقي يكاد أن يخنقني، أكلم نفسي أن لا تخف إن أمي بخير وبقيت أكثر من خمس ساعات وأنا أنتظر حتى يخرج الذين سلبوني أمي ووعدوني أنهم سيعيدونها لي.

جلست كل الوقت وأنا أصارع نفسي حتى صديقي الطبيب لم يكلمني بقيت أكثر من خمس ساعات وأنا أحاول أن

أقنع نفسي أن أمي ستعود، طبيب يدخل غرفتها وطبيب يخرج، لم أكلمهم ولا هم كلموني حتى خرج صديقي من غرفة العمليات أخيرا وقال لي: سامحني يا صديقي أنني فعلت ما بوسعي لأستعيدها إليك لكن القدر كان أقوى من علمنا وطبنا وخبرتنا وسرقها منك ومنا رحمها اللّه كانت أماً لكل من عرفها، نسأل الرب أن يلهمك الصبر والسلوان.

وقفت كجماد في مكاني لا أعلم أن كنت في حقيقة أم خيال، قوةً شلت لساني وكاد عقد الشوك في عنقي أن يخنقني، دخلت غرفتها فرأيتها نائمة، قلقت عليها من البرد استلقيت بجانبها لأدفئها شعرتها تقول انهض يا ولدي أنت تؤلمني، دفعني شيءٌ ما أن أخرج وألقي عليها نظرتي ألأخيرة خرجت وقلت للممرضة:

- لا تدخلي أرجوك إن الملائكة حطت من السماء يلبسون أمي طوق الياسمين، يجهزونها ليحملونها إلى حدائق سليمان، لا تزعجونها إن أمي تخجل فهي

تزف إلى عريسها اليوم الذي رحل عنها منذ ولدت وينتظرها في جنة الفردوس.

نظر إلي صديقي الطبيب بوجه حزين وعيون تدمع وقال :

- هيا يا صديقي لنذهب إلى مطعم قريب نشرب الخمر ونتذكر أمنا الراحلة وندعو لها بجنة الخلد.

ذهبنا أنا وصديقي إلى المطعم حيث جرت العادة في بلدنا أن نأكل بعض الطعام ونشرب بعض الخمر على أرواح أمواتنا ، أتت عاملة المطعم ذات الشعر الذهبي الجميل وأحضرت لنا السلطة المشبعة بالمايونيز وسلطة الخضروات وليتر من الفودكا وثلاثة كؤوس كأسين لي ولصديقي وكأس يوضع فوقه خبز أسود يمثل الغيمة التي مرقت على قدري وكرسي فارغ يجلس عليه ملاك يمثل روح أمي إن هذه الطقوس يعمل بها كل من يحدث عنده حالة وفاة في بلدي. رفعنا أنا وصديقي الكؤوس وشربنا على روح أمي الطاهرة قال صديقي ها نحن نرفع الكؤوس لنتذكر أطهر امرأة وأضاف يقول وطبعاً هكذا جرت العادة بأن يقوم أحد

الموجودين على الطاولة ويذكر حسنات الشخص الميت حتى ينقلها ملاك الروح إلى الرب قال :

- لقد فقدنا اليوم أم لكل من عرفها كانت إنسانة طيبة حنونة وكادحة ولا أحد كان يعرفها أو يتعرف عليها إلا ويقول ليتها كانت أمه لشدة ما كانت تمتلكه من طيبة وكرم وحسن ضيافة.

فقلت لصديقي:

- أتعلم يا صديقي أصبحت أخاف على كل ما حققته من شهرة ونجاح صنعته لي أمي أن يذهب معها .
- لا يا صديقي فأمهاتنا تصنع المجد لنا لنحتفظ به ونورثه لأولادنا ، فما صنعته أمك لك ليس ملكاً لك وإنما ملكاً لأحفادها من بعدها ويجب علينا أن نصون أمانتها التي أوكلتنا فيها.

بقيت أنا وصديقي نشرب الخمر حتى الصباح صامتين نتذكر أمي حتى أيقضنا من ذكرانا صوت الحارس الذي اعتذر منا وقال عفواً لقد انتهى الوقت ونريد أن نغلق المحل

أخذت كأس أمي وذهبت إلى غرفتي بعد أن ودعت صديقي، حقاً لقد بكى صديقي أكثر مني وشعرت أنني أنا من أريد أن أواسيه بفقدان أمي حينها أدركت كم كانت أمي إنسانة رائعة تستحق كل الثناء والاحترام .

حينها حاولت أن لا أكون أنانياً وأحتبس جسد أمي معي مدى الحياة، فقلت لنفسي سأكتفي بروحها الطاهرة معي، لأنها أمضت عمرها وهي تنتظر لقاء أبي في جنته، حقاً شعرت أنني أريد أن أقيم لها عرساً لولا أن مجتمعنا لا يتقبل هذا الموضوع، أصبحت أفكر لماذا نحن نبكي حين يرحلون، هل نبكي على رحيلهم أم نبكي على أنفسنا لأننا نحن اللاحقون، فصديقي بكى كثيراً لعله دون ادراك منه كان خائفاً أن يفقد أمه.

ذهبت إلى البيت ودخلت غرفتي وأنا أحتبس أنفاسي وأحاول أن أقنع نفسي أنني أصبحت وحيداً وأن أمي رحلت إلى غير رجعة، وبينما أنا أجلس مع أحزاني سمعت باب غرفتي يطرق بطرقات ناعمة تصمت بعض الأحيان وأحياناً تقوى وتضعف

ولكنني تجاهلتها لأنني لم أكن أريد لشيء أن يخرجني من الفضاء الذي كنت أسبح فيه مع أمي.

كنت أشعر بسقف غرفتي سماءً كانت تملأها الغيوم السوداء فيهطل من عيوني مطراً غزيراً ولكن من دون رياح ولا زمهرير، ولكنني لململت نفسي وحملت جراحي وآلامي وبكل هدوء فتحت الباب ورفعت رأسي الثقيل وفتحت عيوني الباكية، فرأيت ملاكاً ينزل إلي من السماء عيناه باكية وشفاهه ترتجف حزناً وألماً أكثر مني، تمعنت النظر وإذا هي فكتوريا جميلتي من كانت تطرق الباب .

وقفنا أمام الباب وعيوننا تنظر إلى بعض وهي تبكي وشفاهنا ترتجف ولساننا أبكمان، ثم كسرت الصمت و قلت:

- فكتوريا لقد ماتت أمي، يقولون أنها رحلت ولن تعود فلم يبقى لي شيء في الدنيا، لقد رحلت عندما سمعت بنبأ خطبتك بصحف اليوم، كانت تحبك يا فكتوريا كانت تتمنى أن تكوني أنت أم أحفادها

أرجوك يا فكتوريا لا ترحلي عني لا تتركيني وحيداً ، لا تدعي حلم أمي لا يتحقق، إنها فضلت أن تموت ولا تراك مع غيري، لا تتركيني يا فكتوريا فريسة لذئاب البراري.

ركعت أمامها وكأنني عابدٌ يسجد أمام الآلهة ، نظرت إلي فكتوريا وعيونها تملؤها الدموع وقالت :

- لا تظن أن حزنك أكبر من حزني وأن خسارتك أكبر من خسارتي، فأنت رضعت منها حنانها حتى أصبحت يانعاً وتميز ما هو لك وما هو عليك، أما أنا فكان يوم ميلادي يوم وفاة أمي، وعندما تعرفت على أمك شعرت بأن الرب قد عوضني عن أمي التي رحلت عني بأمك، وما أن شعرت بأن أمي عادت إلي عاد القدر واختطفها من أمامي من جديد ، أما بشأن ما كتب بالجرائد عن نبأ خطبتي فهذا الكلام غير صحيح وأنا نفسي لم أعلم به إلا من يوليا منذ ساعة واحدة عندما اتصلت بي وأخبرتني أن أمك قد دخلت

في أزمة مرضية عندما قرأت الجرائد التي أعلنت الخبر ثم توفت، لعل خطيبي فعل هذا ليضعني أمام الأمر الواقع أمام أبي والناس ولكنني لن أسامحه لأنه في فعلته هذه خسرت أنا وأنت أعز إنسانة على قلوبنا وأنني أعتبر نفسي صاحبة هذا العزاء وأنا من أستحق المواساة منك ومن غيرك بهذه الخسارة.

أصبحت فكتوريا طوال مدة العزاء وهي تستقبل المعزين حتى أنني صدمت وأنا أرى والدها وبصحبته خطيبها الذي أنهت علاقتها معه حال عرفت بفعلته وكل صديقاتها في النادي الرياضي وكل حسناوات المدينة الذين يعملون في دور عروض الأزياء، بالفعل كانت هي صاحبة العزاء أكثر مني، فالحضور الذين آتوا من قبلها كانوا أكثر من الحضور من معارفي، في الحقيقة أدركت أنها من ودعت أمها، لقد دام الحزن في عيونها أكثر من شهر وهي لم تفارق بيتي كنا مع بعضنا البعض ليل نهار وفي ليلة من هذه الليالي وقد غلب الحب حزننا على رحيل أمي عندما التقى

وجهي بوجهها رسمت شفاهي قبلة على شفتيها ليمتزج الحزن بالعشق وقلت لها ضميني يا شمس الدنيا فلقد أكلني برد الفراق، كانت شفتاي تسبح على وجهٍ مغطى بالدموع، ونسائم بلدي حولته إلى ملعب جليد وقف عليه راقصون يرقصون رقصة الحب مثل روميو وجولييت وعلى مدرجات هذا الملعب تجلس الملائكة والنجوم والقمر وكل الطيبين والصالحين والكل كان يصفق لنا حين راقصتنا موسيقى تشايكوفسكي، كأننا على مسرحه نمثل بحيرة البجع، افترشنا الأرض ورميت المعطف عنها ثم حملتها إلى غرفتي ولم أتوقف عن التقبيل، أرادت أن تمنعني ولكن حبها لي كان أقوى وكأن القدر رسم لي جميلتي في هذه الليلة عارية بين أذرعي، وقد سكت الدمع في عيونها ليتحول إلى خجل مستسلم لشفاهي التي كانت تقبلها من رأسها حتى أخمص قدميها، وقلت لها عذراً مليحتي لم أكن أريد أن أزعجك ولكن جلاد الغرام يضربني بسوطه و يدفعني إليك.

كانت تلك الليلة أول ليلة أعاشر فيها امرأة، كانت ليلة لن أنساها حين امتزج الحزن بالحب والفراق معاً، كنت أضمها إلى صدري بقوة وكأنني أخاف أن تهرب مني، فقلت لها يا حبيبتي ها قد امتزجت أجسادنا مع بعضها والآن أصبحنا سواسية نفتقد حنان الأم معاً، تعالي نصنع مستقبلاً مشتركاً بيننا ونشق طريقنا معاً ونعوض بعضنا عن خسارتنا بأمنا بحب يصنع المعجزات .

وفي يوم الأربعين ذهبت أنا وفكتوريا إلى المقبرة لنزور قبر أمنا ونضع الورد على ضريحها، وهنا سمعت أجمل خبر في حياتي كاد أن ينسيني حزني على أمي لولا أن كنت بجانب ضريحها، قالت لي حينها فكتوريا بأنها حامل مني وهي تحمل في جوفها ابني الذي طالما حلمت به.

شعرت بأنني أسعد إنسان على وجه الدنيا صرخت بأعلى صوتي انهضي يا أمي استيقظي من سباتك الأبدي واسمعي الخبر الذي كنت تنتظريه إن فكوريا حبيبتك حامل وفي جوفها حفيدك، اطمئني يا أمي إن فكتوريا لن تخيب ظنك

يا أمي، لقد تحقق حلمي وحلمك، شكراً للرب الذي أعطاني ما أستحق، أرحلي يا أمي وكوني مطمئنة وقولي لأبي أن الفارس الصغير سيحمل اسمه كما حملته أنا وستبقون أنت وهو في قلوبنا على مر الأجيال الرمز والعزة..

في الصباح وبعد يومين من الحزن والأسى والعذاب على ما فعلته مع فكتوريا في تلك الليلة حين أخطأت وبعثت لها الرسالة التي تتكلم عن جيهان بدلاً من أن أرسلها لفاطمة، فأنا أعلم أن القلب الطاهر حين يعشق الحبيب ويجرح منه لا ينسى ولا يغفر بسهولة وخاصة بأنني اعترفت برسالتي بخيانتي لها فذكرت أنني أبحث عن جيهان التي فقدتها منذ أول ليلة كنت معها، آه لن تغفر لي زوجتي الحبيبة .

خلال هذين اليومين شربت الخمر عن شهرٍ من الاحتفالات، كنت ثملاً ولا أعلم ما الذي يدور حولي من أحداث وحاولت أن أقطع عهداً على نفسي بأن أهدأ قليلاً وأن لا أتصرف تصرفات هوجاء لا يقبلها العقل.

خرجت من غرفتي ذلك الصباح، كانت العاملات ينظفن ويمسحن البلاط وموظف الإدارة يضبط أوراق مكتبه وصديقتي فاطمة تشطف الطريق أمامي و كأنها تقول وتدعو لي أن ينظف الرب طريق حياتي من العذاب والألغاز التي كثرت أمامي، ولكنني بدأت أنسى قصة جيهان والبحث عنها لأنني جرحت قلب زوجتي بسببها وهي لم تسع يوما بأن تخدش مشاعري.

دخلت مقهىً لأحتسي قهوتي وهناك التقيت بإحدى الفتيات من أهل البلد وكان أسمها بلقيس تعرفت عليها حين سقط جواز سفري مني صدفة ونادتني من الخلف وناولتني إياه لتقول لي: مسيو جواز سفرك تفضل فإنه سقط منك واحذر من ضياعه هنا مرة أخرى فإن في هذا مشكلة كبيرة لك. شكرتها وعرضت عليها أن تشاركني شرب القهوة وافقت على دعوتي لها وهنا فهمت منها أنها أتت من العاصمة لتتعرف على والدها الذي تبحث عنه منذ عشرين سنة،

فقالت لي أن أمها لم تكن تريد أن تخبرها عن والدها شيئاً وماتت وحيدة .

- كل ما أعرفه عن أبي أنه إسباني الجنسية وغداً ستهبط طائرة آمل أن يكون أبي على متنها لأنه اتضح لي وكما وصلتني الأخبار أنه أيضاً يبحث عني طوال هذه المدة، وأنني فقط أبحث عن أمل لا أعلم إذا كان هذا الأمل من الممكن أن يتحقق أم لا، ولكني أواصل البحث، فقد ماتت أمي ومات سرها معها حيث كنت عندما أسألها عن أبي تقول لي إنه أتى من الفضاء الخارجي نفخ فيّ فولدت أنت .
- حقا أن قصتك يجب أن تكتب برواية.
- لماذا؟
- لأنها قصة نادرة.
- لا يا سيد ليست قصة نادرة.

وأضافت بلقيس تقول: في بلدي كل يوم يولد خمس وعشرون ألف طفل لا أب لهم، فهناك في منطقتنا امرأة

تعرف باسم أم الفضول، وظيفتها منذ أربعين سنة إرسال الفتيات إلى المدينة لتسلمهن إلى رجال يأكلون من أجسادهن وهذا مصدر الرزق الوحيد لأغلب سكان قريتي .

كانت أمي تريد أن تكمل دراستها في الجامعة فوقعت بين يدي هذه العجوز الشمطاء الماكرة، فذهبت بعقل أمي لتعود بعد سنتين تحملني في بطنها بدلا من الشهادة الجامعية التي ذهبت لأجلها .

سمعت هذه القصة من بلقيس ولم أكن أعلم هل هي تمازحني أم أنها بالفعل ضحية هذا المجتمع الظالم .

وفجأة سألتني بلقيس ما بك أراك متعب العينين هل أنت مريض؟ فقلت لها لقد كنت وما زلت مريضاً.

شعرت أنني أريد أن أحدثها عن قصتي لولا أنني تراجعت عن هذا لأنني قررت أن أنسى جيهان ولكنها صدمتني حين ختمت حديثها معي بقولها لي:

- إنني أعتقد أنك تبحث عن شيء وأنصحك بأن لا تتوقف عن البحث لأنك حتما ستجد ما تبحث عنه.

- وما أدراك بأنني أبحث؟

فقالت لي يا سيد حتى الطفل لو نظر إلى عينك لفهم ما قصتك، إن عيونك تتكلم عما في داخلك فلا تتوقف عن البحث فلو توقفت عن البحث ستجد أن التوقف عن البحث عن شيء تدرك حقيقته هو أصعب بكثير من البحث ذاته .

نهت بلقيس حديثها معي بهذه الكلمات وانصرفت، بعدما أشعلت نيران جيهان بداخلي والتي كانت على وشك أن تخمد ولا أعلم حتى هذه اللحظة هل التقت بوالدها أم لم تلتق .

وفي اليوم الثاني توجهت إلى محطة القطارات قاصداً مدينة الدار البيضاء، دخلت العربة ووضعت حقيبتي وكتابي اللذان يرافقانني دائماً بأسفاري، وبعد بضع دقائق دخلت فتاة جميلة في مقتبس العمر فقمت بمساعدتها لتضع حقائبها وجلست بجانبي، مشى القطار وكل منا مشغولٌ بهمه حتى بدأ يصيبنا الملل .

فتحت معها حواراً عن الكتاب الذي كانت تقرأه باللغة الفرنسية، استمر الحديث حتى أن طلبت منها عنوان بريدها الإلكتروني من أجل أن نتحدث بالفلسفة أخذت أقرأ العنوان الذي كان مكتوباً بالإنكليزية وهو جيهان انتفضت بسرعة والتفت إليها سألتها: ما اسمك؟ قالت اسمي جيهان، ضحكت كالمجنون وهي ضحكت وسألتني:

- ما الغريب في اسمي وجعلك تضحك؟
- لا العفو منك يا جميلتي لم أكن أقصد ما فهمت ولكن أريد أن أسألك هل هذا الاسم رائجٌ كثيراً في بلدكم.
- على العكس هو اسم غير شائع بل نادرٌ أيضا في بلدنا، فالأسماء الأكثر عندنا هي خديجة عائشة فاطمة الزهراء يعني الأسماء الدينية، أما جيهان فقد كانت تلك حبيبة أبي في المدرسة وقد سافرت مع أهلها إلى فرنسا ولم يعد أبي يراها منذ ذلك الحين، وبعد خمس سنوات عاد وتزوج من ابنة عمه

وأول بنت رزق بها وهي أنا أراد أن يسميها جيهان مع أن أمي رفضت وكاد هذا يؤدي بينهم للطلاق لولا أن أمي رضخت لرغبة أبي حتى لا يتم الانفصال لأن والدي كان مصراً على هذا الاسم مهما كانت النتائج، ومع أن جيهان حبيبة والدي عادت مرة إلى بلدنا في زيارة قصيرة وكان في صحبتها زوجها وأولادها و لكن ما زال والدي يتألم حين يأتي ذكرها .

- هذا يعني أنه وجدها.
- وما النفع من إيجادها بعد كل سنين الانتظار، لو لم يجدها كان أفضل، على الأقل لم تكن لتتجدد المشاكل بينه وبين والدتي بعدما كادت السنين أن تنسيهم إياها.
- لا يهم المهم أنه وجدها هذا يعني أنني من الممكن أن أجد أنا جيهان أيضاً.
- ماذا يا سيد أنت أيضا تبحث عنها؟

- نعم يا جميلتي ولكنني ابحث عن خيال أسميته أنا جيهان.
- يا سيدي أعذرني فأن عيونك تقول لي بأنك تكذب وأن جيهان التي تبحث عنها ليست خيالاً ابحث عنها ولا تتوقف فلابد وأن تجدها .

ما لها عيوني تفضحني، لماذا كل من يرى عيوني يراها مسكونة بجيهان؟ لماذا عندما عزمت أن أنساها أصبحت عيوني تتوسل لمن تراهم أن لا أنسى وأن أكمل البحث ؟ أنا متأكدٌ أن هناك شيء لا أفهمه ولكنني أعتقد أنه غير عادي ولابد من حل هذا اللغز، لماذا كلما حاولت طرد جيهان من عقلي كأن الواقع يلصقها في وجهي؟
أصبحت عندما يقولون لي لماذا تكذب إننا نراها قناعاً على وجهك أشعر أنني بعدما كنت أراها في الأحلام والخيال أصبح الواقع يرسمها في حياتي اليومية .

ومع هذا كله اعتبرت نفسي أحلم و قررت أن لا أفكر بجيهان وكان كل همي هو بأي طريقة سأجعل حبيبتي فكتوريا تسامحني بعد فعلتي التي لا تغتفر معها.

لذلك قررت المكوث شهراً كاملاً لعل خلال هذه الفترة تهدأ فكتوريا و تسامحني، فوقتي بيدي لكي أبقى كما أشاء، فلا عمل لدي فالرياضة اعتزلتها بعد إصابتي في قدمي وأعمل في إحدى شركات والد فكتوريا ولو عدت للعمل سأكون مضطراً لأرى فكتوريا وتراني وهذا الوقت غير مناسب لذلك وسيزيد الطين بلة.

خاصة أن والدها ينتظر خطأً مني و لو بحجم ثقب إبرة ليتكلم لفكتوريا ما يشاء عني، لأنه غير راضٍ عني منذ تزوجت فكتوريا بعكس مشيئته، ومؤكدٌ أن فكتوريا لا تنتظرني ولا تشتاق إلي وإن اشتاقت فإن كبريائها سيمنعها من ذلك، فأنا أعلم طريقة فكتوريا بالتفكير، لذا لا حل لي في هذا الوقت سوى المكوث في المغرب هذه الفترة وشرب الخمر وسهر الليالي وخاصة وأنني بعد رحيل أمي أصبحت

لا أنام إلا وكأس الخمر بيدي فالليلة الوحيدة التي مرت علي بدون شرب خمر بعد رحيل أمي هي ليلة زفافي مع فكتوريا حيث وعدتها وأقسمت لها أنني لن أشرب الخمر ليلتها فكان في ليلة زفافنا الكل يرقص ويشرب الخمر إلا أنا وفكتوريا كنا كل الوقت ننظر إلى بعضنا البعض ونشبك أصابعنا ببعض كل الوقت .

عدت من مراكش و قد ارتحت بعض الشيء وتوجهت بعدها إلى النادي الليلي جلست مع موظف البار وكان اسمه عبد اللطيف حيث كنت أتكلم معه كثيراً عن جيهان وطلبت منه أن يسكب لي الفودكا كان يسميني عبد اللطيف ((شاعر جيهان)) لأنني كنت أقرأ له من شعري في جيهان وكثيراً ماكان يقول لي:

- لو سمعت شعرك جيهان وهي ميتة لاستفاقت من أيكها .

- أتدري يا عبد اللطيف أحياناً أكتب لها الشعر كل يوم، أصرخ على الشرفات، أنادي أمواج المحيط وأطلب منهم أن يحضروا لي جيهان.؟
- أنك بالفعل يا صديقي شاعر بكل ما للكلمة من معنى.
- يا صديقي إن الخمر غطى كل عقلي إن جيهان صنعت مني نابغة الشعر والشعراء.
- هل أنت متأكد أنك أخذتها من هذا المكان ؟
- نعم يا صديقي من هذا المكان أخذتها واختفت هي وظهرت مأساتي.
- لا تخف أنا متأكد أنها ستعود أتذكر أنه كانت في بعض الأحيان تزورنا امرأة أسمها جيهان .

وبينما كان عبد اللطيف يذكر اسمها هدر رعدٌ هز المكان بصوته وعنفوانه فقلت له:

- اسمها جيهان ؟
- يا سيد كل من يأتون إلى هنا اسمهن جيهان .

- أخبرني عن جيهان التي تتكلم أنت عنها متى رأيتها آخر مرة.

- منذ سنة أو أكثر فلا أعتقد أنها هي من تتكلم عنها، فهي كانت تجلس هنا كل الليل تصطاد الرجال وتأخذهم معها ولا أحد يستطيع جرها معه إلا عندما تكون في حالة سكر شديد منذ زمن لم تأتي إلى هنا ولكنني سمعت أنها أصبحت راهبة وتخدم في بيت المقدس.

قال هذا عبد اللطيف وهو يسخرمن توبتها فقلت له :

- لماذا ممنوعة عليها التوبة؟ ها هي رابعة العدوية غفر لها الرب وأصبحت سيدة فاضلة، فعندما يؤمن الإنسان ولو زرع الغصن اليابس في الصحراء سيورق ويخضر، لماذا لا نسأل ما الذي جعلهم يخبئن شرفهن وما الذي أجبرهن أن يبعن أجسادهن لولا ظرف قاهر .

- ما بك يا سيد كأنني أراك محامياً عن العاهرات ؟

- لا يا صديقي ولكنني عندما تعرفت على جيهان في تلك الليلة رأيت الطهر في العهر، فأنني لم أرى طاهرة مثلها، كنت يوماً مسافراً مع فرقة من الممثلين في طائرة وكل واحد منهم كان من المحتمل أن يمثل دور المسيح أو سيدنا آدم أو يأخذ دور أي رجل صالح في فيلم ما، لكنني لو لم أشاهدهم عن قرب وبقيت أنظر لهم فقط عبر شاشة التلفاز لقلت أنهم أشرف الناس، لقد سمعت حديثهم يشهد الرب أنهم أشخاص لا أحط من كلامهم ولا أردئ من لسانهم، حتى الممثلات بنفس مستوى الرداءة، فهمت حينها أن العاهرات قد يمثلون أدوار الصالحات وهم غير مجبورين على ذلك، وأغلب العاهرات كانوا مجبورين للعهر نتيجة ظروف معينة أكرهتن على ذلك العهر، فهناك نوعان للعهر عهر ظاهر برضا ودون اجبار ومبرر في المجتمع وعهر يمزجه طهر وبالإجبار وغير مبرر فهناك من يمثل

أدوار الشرفاء ويملأ داخلهم العفن واللئم والكراهية مثل أولئك الممثلين، أنا لا أدافع بل أقول لك ما كشفت من عهرهم في طهرهم .

- يا سيد أرجوك كلها قصص، من يدخل هذا العالم يخرج بقصص لا تعد ولا تحصى ولا يريحك من التفكير بنماذجه إلا الموت .

- هل تريد أن تفهمني أن جيهان ماتت لذا لم تعد تراها هنا؟

- لا أقصد هذا يا صديقي فأنا لا أتمنى الموت لأحد ولكن لماذا لا تكون جيهان ماتت بالفعل فالغائب حجته حاضرة .

ضحكنا أنا وعبد اللطيف بعد الحديث، كم فرحت لأنني أدركت أن ما كانت ترسمه لي الظروف من خيال وأحلام أصبحت أشعر فيه وكأنه حقيقة، فمنذ أسابيع لم أسمع كلمة جيهان وفي خلال بضع أيام فتاة تحدثني عن والدها وترى جيهان في عيوني، وفي القطار أصادف فتاة اسمها

جيهان تحدثني أيضاً عن والدها الذي بحث عن حبيبته جيهان ووجدها بعد فوات الأوان وأيضا ترى جيهان في عيوني وتقول لي لا تتوقف عن البحث إنك ستجدها .

فإن كان الماضي خيالاً يسكن رأسي ولم يكن حقيقة فأني أقسم إني سأستمر في البحث عنها لأجدها بين سكري وعقلانيتي.

قررت أن آتي غداً إلى عبد اللطيف وأن أكون صاحياً لأسأله عن ما الذي حدث معي مع فاطمة وزوجها.

فهمت أنني يجب أن أكون مثل محقق البوليس وأن أتصرف بكل حكمة ودون تهور، وإن لم أجدها سأذهب بنفسي إلى طبيب الأمراض النفسية وأطلب منه أن يحولني إلى مستشفى الأمراض العقلية.. فقد سئمت الحياة وهذا اللغز الذي جعلني مجنوناً لا يفهمه إلا تلك المجهولة التي تدعى جيهان، يا أيها الرب ما هذا السر ومن تلك جيهان ساعدني يا أيها الرب أكاد أن أخسر زوجتي وولدي ساعدني أيها الرب .

وبينما أنا أكلم نفسي غلب علي النعاس ودخلت في حلمٍ جديد وغريب كاد أن يهلك قواي، حيث كنت أنظر إلى الحيوانات التي كانت أذيالها من الخلف تلاعب عيني حين دخلت قاعة سينما، فكانت كل الحيوانات حاضرة في القاعة تتفرج على فلم لم أكن أراه بسبب الفيلة الضخمة الموجودة أمام شاشة العرض و قدسدت الطريق أمام نظري، فمنعتني من رؤية ما يعرض على الشاشة، عبرت صفاً من المقاعد فرأيت مجموعة من الزرافات تبكي وكأنها تحضر فيلماً تراجيدياً، استأذنت منهم فعبرت صفاً لأرى الذئاب أيضاً تشارك في رؤية الفيلم، وبعدها صفٌ من الكلاب تنبح، وصفٌ من القطط وصفٌ من الأرانب ويجلس في الصف الأول أفعى لم ترى عيني أكبر منها، فقلت لها ما الذي أتى بك إلى هنا يا من تحملي في جوفك أكبر السموم؟ سكتت ولم تجب على سؤالي، شعرت وكأنها تقول لي انظر وأرني ماذا أنت بفاعل، نظرت أمامي فرأيت طفلاً يشبه الملائكة، مستلقياً على فراشٍ من الشوك وهناك

جلاد أسود يجلده اقتربت منه وأمعنت النظر فإذا عيني ترى هذا الطفل ولدي مكسيم، عندها فقدت صوابي وهجمت على الجلاد وألقيته أرضاً وأخذت منه سوطه وبدأت بجلده ولم أكتف منه ضرباً حتى أنهكني التعب، ثم توجهت إلى ولدي وقلت له تعال إلي يا حبيبي وعندما نظرت إليه جيداً اكتشفت أنه ليس ولدي وإنما طفلة جميلة يطغي جمالها على الملائكة، ضممتها إلى صدري فنظرت إليها فلم أجد يداي حتى تعانقها، فقلت لها: آه ها أنت التي رأيتك في الحلم. فقالت لي الطفلة: نعم هذه أنا يا أبي خذني معك أرجوك فقد قالت لي أمي أنك ستأتي إلى وتخلصني من بين يدي الجلاد. .نظرت إلى الأسفل فرأيت أنه بقدرة قادر عادت لي يداي رفعتهم لأضم تلك الطفلة فلم أجدها فقد اختفت من أمامي، واختفى المشاهدون الحيوانات كلهم وبقيت وحدي في قاعة السينما، ولكنني سمعت أصوات التصفيق وكأنني أنا ممثل المسرحية على خشبة المسرح، صحوت من حلمي على صوت آذان الفجر انتفضت من فراشي ومباشرة

بدأت الاتصال بفكتوريا حتى أطمئن على ولدي، أكثر من عشرين مرة اتصلت وفكتوريا لا تجيبني، كانت ترد على اتصالي الخادمة التي تجيبني وكأن هناك من يعلمها كيف تجيب أنه لا أحد موجودٌ في البيت.

أنا لم أكن طامعاً سوى أن أطمئن على ولدي وأخيرا خطر ببالي أن أتصل بيوليا ممرضة أمي في السابق حيث طمئنتني وقالت لي لا تخف إن ولدك بخير وأنها كانت قبل ساعات معه تلاعبه حيث أخبرتني أنها بدأت بالعمل عند فكتوريا مربية لولدي مكسيم .

لا أعلم لماذا شعرت أن هذا الحلم يخص جيهان وأنه ينبئني أنني أصبحت قريباً منها شعرت بتفاؤل بعدما اطمئن قلبي على ابني، خرجت من الفندق وتوجهت في طريقي إلى المحيط كما جرت عادتي، وهناك رأيت رساماً يرسم اللوحات، لفتت نظري رسوماته فخطر ببالي ضابط الشرطة صديق زوج فاطمة الذي قال أنه سيجعل رسام الشرطة يرسم

صورة لجيهان، فقلت للرسام: لو سمحت أريد أن ترسم لي صورة فتاة من خيالي هل تستطيع ذلك ؟

فرحب الرسام بالفكرة وقال لي أنه مستعد لذلك وطلب أن أبدأ بوصفها حتى يتمكن من رسمها فقلت له :

- هل رأيت يوما المها.
- نعم.
- ارسم عيون المها فعيونها مثلها، هل أنت متزوج وعندك أطفال؟
- نعم متزوج وعندي طفل عمره شهر واحد .
- هل رأيت براءة وجهه، براءة خدودها مثل براءة وجه ابنك. هل كنت يوما في بستان رمان؟
- نعم عند والدي بستان من الرمان.
- انتقي أجمل رمانتين في بستان والدك وارسمهما نهودها، .هل رأيت شلال تنبت حوله أجمل الزهور ؟ هذا شعرها، هل رأيت شقائق النعمان مثلها شفتيها وإذا سمعت يوما صوت الهدهد ...

- فقاطعني وقال:
- يا سيدي أشعر أنك تعطيني صفات الملائكة.
- بل أجمل من الملائكة ما سترسمه ريشتك، فإنني أريد أن أضع هذه الصورة بعد رسمها في مجلة الإعلانات لعلي أجد امرأة كهذه تتزوجني .

ضحك الرسام وقال: يا سيدي إنكم الغربيون والرب عالم مجانين عن جدارة.

قلت له نعم، وفي داخلي قلت الحمد للّه أنني لم أخبره قصتي مع جيهان، أخذت الصورة وذهبت بطريقي حتى أكمل مهمتي، ذهبت إلى عبد اللطيف حتى أدعه يرى الصورة لعله يتذكرها، بعد أن وصلت إليه قلت له: هذه هي تمعن فيها جيدا. أخذ ينظر إلى الصورة أكثر من نصف ساعة حيث قال لي: يا صديقي هذه ليست بشراً وإنما أنت تبحث عن ملاك، فقلت له: تذكر أرجوك فإنني واللّه لن أمل البحث حتى أجدها. كان يجب أن أقول له ما قلته حتى يصر على مساعدتي، لأن العاقل لا يصدق ما يجري معي من أحداث.

قلت له: أرجوك ضع هذه الصورة أمامك وتذكر ما شئت من الوقت وأعطيني الجواب واللّه أنني سأكرمك وأعطيك من الدراهم ما تشاء المهم عندي أن أعرف أين صاحبة هذه الصورة. فقال لي: أتدري يا سيد حقاً إن عيونها تكلم ذاكرتي، يحتمل أنني بدأت أتذكرها وأنها تقريباً تشبه جيهان التي انقطعت عنا منذ فترة، أخذ ينظر إلى الصورة ويتمعنها، وبعدة فترة من الزمن قال: يا سيد تذكرت نعم إنها هي حقاً، كانت جميلة وكان اسمها جيهان، ولكننا بالفعل منذ حوالي السنة ونصف لم نراها، وأنني مستغرب كيف ذكرت لك اسمها الحقيقي، لأن عاهرات الليل لا يذكرون حقيقة أسمائهم ولا عنوانهم، ولكنني على ما أذكر أنها حملت من أحدهم طفلة وتركتها لوالدتها ترعاها وعادت للعمل .

في الحقيقة سمعت كلامه وبقيت هادئاً كل الهدوء، بينما في داخلي كنت أصرخ فرحاً وأرغب أن أرقص وأغني من سعادتي واحمد الرب لأنني اعتقدت أنني وجدتها، فقلت له:

هل تذكر أين تسكن؟ فقال لي: أعرف أقرب نقطة كانت تنزل فيها عندما كنت في بعض الأحيان أوصلها بسيارتي، ولكن هؤلاء العاهرات لا ينزلون بأماكنهم الصحيحة فأنهم يموهون ولا يرغبون بأن يعرف أحد أين مسكنهم فهم حذرون جداً، قد أتذكر المكان الذي كنت قد أوصلتها إليه ذات مرة .

وعلى الفور توجهت أنا وهو إلى ذلك الحي وصلنا إلى المكان حيث كان يبعد حوالي الأربع كيلومترات عن المدينة، وعندما اقترينا كان هناك أربع مفارق طرق وكل مفرق يذهب إلى قرية وكل قرية لا تقل عن العشرة آلاف نسمة، تعمقت بالتفكير قليلاً وقلت بنفسي: كيف لي أن أجدها في هذه القرى وكل ما أعرفه عنها هو اسمها فقط؟

كنت بحاجةٍ لشخصٍ من المنطقة، وخاصة أنني أدخل إلى الأرياف ولا أعلم كيف سيستقبلونني وأنا أسأل عن فتاة وأنا أجنبي، صحيح أنني من أصول عربية ولكن سيكون من الصعب علي إقناعهم بذلك، لذا بقي معي عبد اللطيف

ولم يتركني طوال مدة ثلاثة أسابيع كاملة، كنا نبحث عنها بكل عزم أخذنا نسأل كل من يمر في طريقنا حتى الطفل ابن السابعة من العمر لم نستثنيه بالسؤال، حتى تراب الشطآن وأمواج البحر، كثيراً ما كنا نشعر أنه غير مرغوبً في وجودنا في هذا الريف الفقير جداً، وبعد هذا البحث الذي طال اتصلت بعبد اللطيف وانتظرته كثيراً حتى أبدأ معه يوم بحث جديد، ولكنه لم يرد على اتصالاتي ولم يعد يأتي، فهمت ساعتها بأنه مل البحث وتعب من جنوني حسب ما أعتقد، صراحة كان له الحق بأن لا يجيب على هاتفي لأننا كنا نبحث عن إبرة في كومة قش، كنا نسأل ولا ندري عما نبحث بحثنا حيث دخلنا كل حانوت ومتجر ومطعم ومقهى، والكل كان يتعجب من طريقة بحثنا عن امرأة كل ما نعرفه عنها هو اسمها جيهان، فكانوا يقولون لنا لا توجد امرأة بهذه المواصفات بالأرياف ويجب أن نبحث عنها في المدينة وربما القصور وآخرين قالوا لي بسخرية: اذهبوا واسألوا عنها السندباد .

فكم سمعنا من أجوبة غير جيدة ومهينة في بعض الأحيان، وكم كان وجهي يحمر ويصفر حين أسمع كلمات لم تعتد أسماعي عليها ، فقررت التوجه للبحث عنها بمفردي، كنت أتربص يوماً كاملاً في كل قرية حتى أصبح وجهي مألوفا لأهالي القرى، فكانوا ينظرون إلي نظرات منها الاحتقار ومنها الخوف، وكل شخص يتمتم بوجهي بكلمات لا أعرفها ولكنني أفهم أنه كان يشتمني شعرت أن لا بد من أحدهم أن يغرز خنجره في جسدي .

بقيت مصراً على البحث وأصبحت جيهان بالنسبة لي هي هدف يجب أن أحققه مهما كلفتني الظروف حتى ولو كانت على حساب زوجتي وولدي، وبينما أنا أتربص في إحدى القرى رأيت رجلاً هرماً يقترب مني، وعندما وصل قال لي: يا ولدي أنا صاحب هذه الدكان البسيطة الموجودة هنا ولاحظت بنظراتك شيئاً غريباً وكأنك تبحث عن شيء ما ، ولكنني أصبحت أخاف عليك من شبان القرية فهم جاهلون في تصرفاتهم وأشك بأنهم بدؤوا يغضبون من

نظراتك، ولأنني صاحب خبرة بهذه الحياة لم أرى فيك وجه مشاكل، إن النعمة مرتسمة على وجهك لذلك يا بني أخبرني عن ماذا تبحث حتى أستطيع مساعدتك أو أنصحك بالرحيل من هنا ، أنا أرى بعينيك أنك تبحث عن امرأة، فإن الأغنياء مثلكم لا يبحثون في أزقتنا إلا عن النساء، فقلت له: يا عماه أنا بالفعل أبحث عن امرأة، ولكنني لست كما تظن، فأنا أبحث عن امرأة منذ فترة لأريح ضميري الذي أنهك قواي وهذه صورتها انظر جيداً يا عماه فهل تعرفها؟ نظر إليها الشيخ وقال: ومن لا يعرفها فإن صاحبة هذه الصورة معروفة عندنا مثل العلم .

شعرت وأنا أسمع جوابه وكأنني في حلمٍ، لم أكن أتوقع أن يجيبني بما كنت أريده، فقلت له: يا عماه إن اسمها جيهان هل تعرفها حقا؟ فقال لي ومن لا يعرفها يا ولدي، يسمونها الجارية الصفراء وهناك من يطلق عليها لقب عاهرة الأمراء.

فقلت له: ولماذا يا عماه؟ فقال لي: في أحيائنا إنهم كثر وكل واحدة لها اسم ولقب تنادى به، كانوا يسمونها

الجارية الصفراء كما يقال أنه أصاب شعرها الجميل الشيب وهي في العشرين من العمر وأن لها قصة لا تصدق .

ولكنني بصراحة يا ولدي لم أصدق القصة الخرافية التي تروى عن جيهان و التي يتدخل بها الجن و الغفاريت، مع أن كل أهالي القرية صدّقوها، أنا أذهب إلى الحانوت كل يوم ويدخل الحانوت كل يوم المئات من الأشخاص ويحكون لي أسرارهم، وهناك من حدثني عن قصتها بشكل أقرب إلى الواقع، فقال لي أن هناك عجوزاً شمطاء كانت قد باعتها وهي طفلة لتعمل في تنظيف إحدى القصور، وعندما دخلت القصر كان هناك مجموعة من الشبان والرجال أخذوا يستغلون جسدها بأبشع شكل في ذلك القصر، وبعد أكثر من ستة أشهر بقيت خلالها في ذلك القصر انتهت مهمتها وعادت إلى أمها مريضة .

فقلت له: يا عماه حسناً ولكن أين هي الآن وأين أمها .

فأخبرني قصة جعلتني كئيباً كارهاً اللحظة التي قابلت فيها ذلك الرجل، فأصبحت أفكر هل هذه القصة حقيقة

أم كانت من خيال هذا الرجل، لأنه روى لي الكثير من الذي لا يقبله العقل، شعرت أن قلمي يبكي حين عدت إلى غرفتي ودونت هذه القصة في مذكراتي، أخبرني أن هذه الفتاة ولدت في أسرة متواضعة حيث كان والدها ضابطاً في الجيش حين أحب أمها عندما كانت طالبة في المرحلة الثانوية وحارب لأجلها كل من أراد أن يقف في طريقه، أحبها حباً جنونياً لا يعرفه أي قاموس من قواميس الدنيا، أتى إلى والدها العجوز وطلبها منه وتزوجها حيث لم تستمر حياتها معه أكثر من شهر حين دعاه واجبه الوطني أن يذهب ويدافع عن وطنه، وفي الحرب استشهد ليروي دم العاشق والعريس الذي لم يشبع من لذة زواجه من حبيبته أرض بلده، فيعود محملاً على خشبةٍ زينت بالعلم الوطني و بأكاليل الورد، عم الحزن القرية وزفوه عريساً يحمله شباب القرية ليدخلوه أيك الشهداء العشاق، كان خبر وفاته على زوجته أثقل من جبلٍ على ظهر نملة، غاب الجمال من وجهها وذبل وردها وكأن هناك من قطفه ورماه في شارع

تملؤه الأوساخ، ولم يبق من يؤنسها إلا ذلك الجنين الذي يمكث في بطنها وقد تركه حبيبها لها قبل أن يرحل، فأصبحت تحاكيه وهو في بطنها وتقول له أنه يجب أن يقتل من قتل أبوه، ولكن ظنها خاب في حملها فبدلاً من أن تنجب ذلك البطل الذي كانت تحلم بأنه سيحقق لها أملها في ثأر أبيه، كان هذا المولود هو جيهان ذلك الملاك الرائع الذي أحبه كل أبناء القرية ولكن أمها كانت تذبل يوماً بعد يوم، حيث أصابها مرض السكري والذي أقعدها لتصبح جيهان خادمة في أحد مقاهي الشيشة والشاي وهي بنت العاشرة من العمر كانت ببعض الدراهم تشتري الطعام والشراب وأيضا الكثير من الأدوية لأمها، ولكنها لم تفقد الأمل والبسمة كانت تقول سأكمل تعليمي وأصبح طبيبة لتشفى أمها .

كان هذا ما يقصه علي ذلك الرجل الهرم، كان يحدثني والدموع قد ملأت وجهه فقال لي: يا ولدي أنا أصبحت في الثمانين من العمر ولم أر في حياتي إلا قلوباً تولد سعيدة و

تضحى حزينة، قلوباً أدماها الألم وأتعبها النسيان، تدوس سعادتها سطوة الفقر فيعطيها أصنافاً من العذاب، يبلل وجوههم الدمع وراء الأبواب الصدئة يا ولدي على جدار مهمل يتكون الصبر شربه أطفالنا علقماً نحن يا ولدي كل يوم على موعدٍ مع ألم من نوع آخر، تمتزج ابتسامة أهل قريتي برحيق أرواحها الباحثة عن الأمل، في بلدي كل يوم يقتل الأمل على أعتاب العبث حتى يتلاشى أمام قسوة الجوع والفقر. الأمل في شبابنا يلفظ أنفاسه الأخيرة وهم في الثانية عشرة من العمر إن قريتنا أشباح موت تتجب الملائكة وبعد بضع سنين تتحول الملائكة إلى أشباح موت تتحرك يا ولدي، الفقر زرع وسقى كلمة التعاسة والتشاؤم في قلوبنا فهذا العصر عصر الظالم ونصرته على المظلوم، في عصر الثروات الهائلة يتفشى البؤس في أزقة قريتي، فهناك بشر تلعب بالدراهم وتقتلهم التخمة وبشرٌ يبيعون أجسادهم من أجل لقمة العيش، إن أهل قريتي يعيشون في أكواخ من صفيح ومنهم من يعيش في العراء، يفترشون الأرض

ويلتحفون السماء إن كل أهل قريتي أبناء الفقر لا صوت لهم يرتفع ولا أذن تسمع ولا عيون ترى .

وأضاف يقول: أتذكر جيهان عندما كانت تجلس على ركبتي وتشد بذقني التي أهلكها الشيب وتقول لما هذا الشعر الأبيض يا جدي؟ كنت أقول لها: لأنني شخت وبقي بعمري أقل من ما مضى وسأموت، فتقول لي: لا يا جدي سأصبح طبيبة بارعة وأخترع دواءً يشفي أمي ولا يسمح لك بأن تموت.

قال لي أيضا بأنه لم يراها منذ سنين حين اشتد المرض على والدتها وذهبوا إلى الشمال وهذا آخر ما أعرفه عنها، فقلت له: يا عماه أرجوك أن تركز معي إن صديقي قال لي أنه كان يوصلها قريباً من هنا أكثر من مرة، عندها سألني الرجل العجوز لماذا أبحث عنها بالضبط فحدثته عن قصتي معها مع بعض التغيير، حيث لم أقل له أنها تلاحقني في أحلامي، ولكنني قلت له أنني أحببتها والآن أبحث عنها، فإن جيهان قد سحرها جني الفقر ليصبح شكلها شكل

شيطان ولكن قلبها بقي بريءً وطاهراً كقلوب الملائكة.
فقال لي الشيخ يا ولدي إن كنت تقول هذا فيحتمل أنها في قرية أخرى لأنها لو كانت موجودة هنا من المؤكد كنت سأراها لعلها موجودة في قرية أبو نحيس.
في الحقيقة أنني لم أكن متأكداً من أن التي كلمني عنها هي جيهان التي أبحث عنها، خاصة حين قال أنها صبغت شعرها باللون الأصفر عندما شاب شعرها، ولهذا السبب سميت الصفراء فأنني حين كانت معي لم أشاهدها صفراء ما عدى ذلك الحلم الذي رأيت فيه امرأة جميلة كانت تعطيني الزهور وكانت الزهور بيدها صفراء.
إذا لابد أن تكون هي بالفعل وإلا على ماذا كانت تدل الزهور الصفراء في الحلم؟! يا اللّه غدا سأذهب إلى قرية أبو نحيس لأبحث عنها.
في اليوم التالي توجهت إلى تلك القرية ولم أرغب في أن أظهر الصورة لأحد، فجعلت شعوري يقودني كيفما يشاء، كان يقول لي أن جيهان في هذه القرية وكنت خائفاً أن

تهرب مني حال ما تعرف أنني أبحث عنها ، لذلك قررت أن أمكث بهذه القرية يوماً كاملاً من دون أن أسأل أحدا عنها ، لعلي أرى امرأة حملت على رأسها شعراً أصفر.

جلست أكثر من خمس ساعات في مقهى الشيشة والشاي، بقيت في هذه القرية عشرة أيام وأنا أتجول فيها وكدت على وشك أن أقرر الرحيل لولا أن حدث شيءٌ جعلني أتشبث في البحث عنها، حيث جلست على كرسي الحلاقة عندما قررت أن أحلق شعري وذقني، وجلس شابٌ آخر على كرسي مقابل الكرسي الذي كنت أجلس عليه ولاحظت من خلال الحديث أنه صديق الحلاق، حيث قال له اصنع لي تسريحة جميلة فأنا ذاهب غداً إلى المدينة. فقال له الحلاق بلهجة السخرية: وما رأيك أن ألون لك شعرك باللون الأصفر؟ فضحك الشاب وقال له: لا بأس فيصبح في حينا المرأة الصفراء والرجل الأصفر .

وما أن سمعت هذه الجملة شعرت بجسمي كاد يهرب مني لكنني خفت مرة أخرى أن أصاب بالجنون، أخذت أكلم

نفسي فمرة أشعر أنني سأبكي وأخرى  ابتسم، أمسكت نفسي وأنا عند الحلاق ولا أعلم كيف مر الوقت حتى انتهى من حلاقة ذقني، خرجت من عنده وأنا أكلم نفسي وأقول يا اللّه هل من الممكن أن ألتقي بجيهان بعد هذا التعب؟ وقفت إلى جانب الطريق أنتظر سيارة لتنقلني إلى فندقي حتى أجلس في غرفتي وحدي أفكر ماذا سأفعل في يومي القادم، وأثناء استعدادي للصعود إلى السيارة سمعت صوتاً من الخلف يناديني، نظرت وإذا بي أرى تلك الفتاة التي جلست معها في المقهى حين ناولتني جواز السفر عندما سقط مني وكانت حدثتني بقصتها بأنها تبحث عن والدها .

بصراحة شديدة شعرت بالسرور عندما رأيتها، وخاصةً عندما كلمتني وقالت لي أنها وجدت والدها الذي كانت تبحث عنه منذ زمن طويل، فسألتها ما رأيك أن نلتقي في المساء في مقهى المارينا فقالت لي لا أنني اليوم مشغولة لا أستطيع ذلك، ولكن غداً مساءً من الممكن أن نلتقي، فقلت لها: حسنا أنا بانتظارك غداً في المارينا.

وفي صباح ذلك اليوم وبعد أن شربت قهوتي توجهت إلى المارينا وهي ممشى على امتداد شاطئ الأطلسي تملأه المحلات التجارية والمقاهي ويعج بحركة السواح والسكان المحليين، منهم من يمارس رياضة الجري ومنهم من يسبح و منهم من يلعب بالكرة على رمال المحيط، أما أنا فكنت في حينها شاعراً يخاطب موج المحيط أسأله عن جيهان وأسأل ذرات الرمال هل مرت جيهان من هنا يوماً أكاد أسأل كل أهل الحي وكل من كان حولي أسألهم هل رأيتم المرأة الصفراء، حقاً أنني موجود على حافة الجنون لأنني لا أعلم هل اقتربت النهاية وهل سألتقي بجيهان لأنني التقيت بالفتاة التي تسكن في نفس الحي الذي تسكن فيه جيهان والتي من الممكن أن تخدمني في هذا الموضوع، أم أن هناك شيء مجهول ينتظرني وسيرسلني إلى ترحال جديد سنين عدة أبحث عن شيء لا أدركه، كنت أجلس وأنظر إلى الموج الذي كنت أراه كأنه يحمل قارباً على ظهره سندباد ومعه جيهان السمكة الذهبية على شكل عروس البحر .

لقد اتعبني التفكير والخيال الذي كان يسرقني من جسمي ويذهب إلى دنيا لا يوجد فيها سوى جيهان .

توجهت إلى غرفتي، حقاً أصبح التعب يثقل بدني فبت أنام مرتين في اليوم، دخلت حمامي بعد سبات استغرق الساعتين اغتسلت وتعطرت بأفخم العطور وكأنني في ليلة زفافي خرجت من الفندق وتوجهت إلى مقهى المارينا حيث اقترب موعدي مع تلك الفتاة، وصلت المقهى وانتظرت بضع دقائق طلت تلك الفتاة، تصافحت معها بقبلتين على الخدين، جلسنا وعلى الفور بدأ الكلام عن والدها وكيف قضت معه أجمل أيام عمرها والآن سافر إلى بلده وهي ستلحق به بعد العطلة الصيفية فقلت لها :

- أتعلمين سبب لقائي معك؟ إنني أيضاً أبحث عن امرأة واتمنى أن يكون لديك أي معلومة تسهل علي مهمتي، يقولون أنها تلقب بالمرأة الصفراء.
- آه الجارية الصفراء أو كما يقولون الرجال العاهرة الصفراء .

- جيد هل تعرفينها؟
- في الحقيقة لا أعرفها جيداً لأنها لم تسكن فترة طويلة في قريتنا قبل أن تموت.
- هل ماتت ؟!!! ومتى؟!!!
- لا أعلم بالتحديد فترة موتها ولكن تقريباً منذ سنة ونصف السنة.
- إذا ليست هي جيهان التي أبحث عنها لأن جيهان التي أبحث عنها كنت معها منذ حوالي الثلاثة أشهر.
- أنا لا أعلم عن من تتكلم ولكن جيهان المرأة الصفراء يقولون أنه كان يركع عند قدميها المئات من الرجال ويحكى أن هناك أميراً وقع في غرامها وأعطاها مالا وعالج أمها في فرنسا.
- كيف ماتت؟
- كما سمعت أنها في إحدى الليالي وهي في طريقها إلى البنك من أجل أن تسحب الدراهم هاجمها شاب

وطعنها بالسكين وأخذ مالها وبقيت هي تسبح في دمها، مسكينة تلك المرأة تركت الحياة وخلفها أمها التي كانت تعاني المرض وتوفيت بعد سماع نبأ وفاة ابنتها، ولم يبقى سوى طفلة جيهان حيث كانت تعيش مع جدتها التي توفيت من أثر صدمتها بخبر وفاة أمها والتي من المؤكد ستحمل في طيات عمرها نفس المصير الذي كان لأمها وجدتها لأنها وقعت أيضا بين أحضان تلك العجوز الشمطاء .

- إن لجيهان طفلة؟
- نعم
- وأين قتلت جيهان ؟
- قتلت هنا في المنطقة بالقرب من أحد الجوامع، .يقال أنها ابنة شهيد وأمها أكلها مرض السكري، هل تعلم كنت أرى بعيونها كرهها للرجال، كانت تبتسم بسمة العاهرات لأنهم أماتوا فيها بسمة الحسناوات ليس فقط شعرها كان أصفراً حتى

وجهها كان كذلك، كل هذا كان سببه الفقر واستغلال الأغنياء للفقراء فكل أهل قريتنا مصيرهم مثل مصير جيهان، بالنسبة لي كنت محظوظة لأن جدي ترك لنا أرضاً نعيش منها، تعلم أنني في بداية الأمر كرهتك واعتقدت أنك مثل هؤلاء الرجال ولكنني سريعاً ما غيرت رأيي بعد ما علمت أنك تبحث عن امرأة مثل جيهان مع أنني فهمت من كلامك أنها ليست هي لأنها ماتت منذ زمن.

- يا صديقتي صدقيني أنني ما كنت يوما لأستغل ظروف إنسان لأجل سعادتي.
- يا سيدي أظن إذا بقيت الظروف هكذا تعاكس الفقراء ستشن ثورة اسمها ثورة الخاسرين فكل ما تولد فتاة في قريتي إلا ويكون غلبها العذاب وسرق الأمل والابتسامة من عيونها، يتربص بها البؤس كأنها لعنتها الملائكة فما أن تفتح عيونها للدنيا

تكون قد وقعت في أحضان من أعطتهم الدنيا المال والجاه ولم يكتفوا بسلب أجسادنا منا ، أيضاً سلبوا منا الفكر والعقل ليسكن مكانه التخلف والجهل، فلو استطاع فقراء قريتي تأمين لقمة العيش لوجدتهم أشرف الشرفاء، إن الأغنياء يشترونهن لليلة واحدة ثم يرمونهن للأقدار تحدد مصيرهن،ولا أستطيع التكلم أكثر من هذا كي لا أكون ضحية الشرطة التي بدلت مهمتها من حماية الشعب إلى سلب أموال الشعب .

وأضافت تقول: يا سيدي هذه أرضي وبلدي ولكن لماذا هم يتنعمون بخيراتها ونحن من نفلحها لهم ونزرعها وندفن جائعين لتأكل عيوننا التراب، خذ مثالاً بسيطاً تلك التي اسمها جيهان كان حلمها بسيطاً، كانت تحلم أن تلاقي رجلاً يحبها وتحبه، يقبلها وتقبله، وقلبها يصرخ ويطلب منه أن يضمها ، كان حلمها أن تبني أسرة وتربي جيلاً صالحاً تعلمه الأخلاق و الإيمان وحب الوطن، فهل تعلم يا سيدي من

قتل هذا الحلم في صدر جيهان؟ لقد قتله الفقر وبدله بوجه قبيح لا نرى فيه إلا الجوانب السيئة لذلك يا أيها السيد إنني أطالبك باسم كل فتاة ظروفها غلبت في عقلها الشرف والدين أن تتابع البحث عن جيهان حبيبتك واعلم أنك كلما صبرت على عذابك في البحث عنها كان ثوابك عند اللّه عظيماً، فكل امرأة من هؤلاء تبحث عن فارس أحلامها فإذا وجدتها ارحمها وازرعها بين أضلاعك واعطف عليها لأنه قد يكون أكلها برد الذل والإهانة، لأن جيهان التي تبحث عنها من المؤكد أنها ضحية ظروفها أتاها الفقر فسكن كل العمر في قلبها لابد أنها خرجت لتستقبل نسائم الفجر، لتحصل على صدقة من غني، لعله ينعم عليها بزواجٍ فيكون الشفاء. ولكن كان هذا الحلم يأتي كل يوم وينتهي على كل حال أنا تأخرت يا صديقي وأرغب بالذهاب هذا رقم هاتفي إذا أردت مني أي مساعدة أنا جاهزة لأن دافعك إنساني. فقلت لها: شكراً ولكن هل تعرفين أنني أحببت أن أعيش بين أهالي قريتك؟ فقالت لي:

أنت واحد من الملايين وإن أنقذت جيهان  فإنك ستنقذ واحدة ولن تستطيع أن تفرج هم الملايين.

ذهبت تلك الفتاة الجميلة الرائعة في فكرها وأنا توجهت إلى فندقي بعد أن ودعتها ووعدتها بزيارتها في الصباح وذلك لتناول الفطور الصباحي وكنت في داخلي قد قررت أن أعرف مصير تلك الطفلة التي تركتها المرأة الصفراء وحقيقة أنني كنت كل الوقت أسميها المرأة لأن لساني رفض أن يسميها كما يسمونها أهل القرية بالعاهرة أو الجارية .

صباحاً تناولت الفطور والشاي على الطريقة المغربية وقلت لها:

- أتعرفين يا صديقتي أريد أن أزور تلك الطفلة.
- أرجوك لا نريد مشاكلاً.
- لما المشاكل يا عزيزتي؟

- لقد تبنتها امرأة عجوز هي وزوجها المجنون وأصبحوا هم المسؤلين عنها وزيارتهم تسبب لك وجعاً في الرأس لشدة هبلهما وحقارتهما.

- كيف سمحت لهم السلطة بتبنيها أليس هذا ممنوعا شرعاً وقانوناً؟

- أي سلطة، لا سلطة عندنا تفوق سلطة الشيخ فهو من أعطاهم هذا الحق، وأيضاً مع شكره وتقديره لهما بأنهما لم يتركانها في الشارع، مع أن هذا الشيخ يعلم أن هذه العائلة وظيفتها بيع الأطفال للأسر المحتاجة كما أنهم أحيانا يبيعون أعضائهم، وعندما تكبر الطفلة التي لم تسنح لها فرصة أن تباع لأحد الأغنياء أو يبيعون لها أحد أعضائها يستغلونها في العمل في نوادي الليل، حرقهم الله في جهنم هؤلاء الأوغاد. فقلت لها: وكيف يوافق الشيخ على هذا؟

- في بلدي كلمة الشيخ الجاهل تخرس علماء العلوم .

بعد أن سمعت منها هذا الكلام عن العائلة التي تعيش معها هذه الطفلة أصبحت الرغبة في رأسي برؤية الطفلة أشد من قبل فطلبت منها أن تصطحبني إلى بيت هؤلاء الأوغاد لأرى تلك الطفلة .

توجهنا أنا وهي إلى الجهة الجنوبية حيث تعيش تلك الطفلة وعندما وصلنا المكان المحدد رأيت بيتاً صغيراً أمامه طفلان يلعبان ومعهم جرو صغير، توقفت قليلاً وأخذت أنظر إلى تلك الطفلة التي كانت هي أيضاً تنظر إلي وكأنها تعرفني وأعرفها ، اقتربت منها واحتضنتها إلى صدري فسالت عيوني بالدموع حين قالت لي:

- أنت أبي الذي قالت لي أمي عنه أنه سيأتي ويأخذني معه ؟
- أين أمك يا صغيرتي ؟
- ذهبت إلى الله تستغفره على أخطاؤها ليعود أبي وأعيش معه كما تعيش صديقتي سارة مع أهلها.

عاودت الطفلة السؤال من جديد :

- هل أنت أبي ؟

ليرد عليها صوتٌ من الخلف ملأه اللئم والجشع وقال لها: أنا والدك يا صغيرتي ادخلي إلى البيت فوراً، ركضت الطفلة إلى الداخل مسرعة وكأنها هربت من غول يريد أن يفترسها فقلت له:

- هل هذه الطفلة الجميلة ابنتك؟
- نعم إنها ابنتي هل تريد شيئاً؟
- لا شكراً ولكنني أريد أن أعطيك بضع الدراهم لتشتري لها بعض الحلوى.

مد يده وأخذ الدراهم مني بشغف وقال لي: أستطيع أن أبيعها لك إن أحببت. .شعرت أنني أريد أن أكسر جبهته وتذكرت قصةً مشابهة لما يحدث معي كنت تابعتها على شاشة التلفاز في سنوات طفولتي.

يا إلهي هل يعقل أن هذا الكلام حقيقة، أمسكت نفسي وحاولت أن أهدأ أعصابي وقلت له:

- كم تريد ثمنها ؟

- ليس بالكثير ولكن عليك أن تأخذ موافقة السلطة أولاً إذا كنت تريد أن تأخذها معك للخارج.
- حسناً هذا على عاتقي وسآتي إليك في وقت آخر، اسمع يا هذا من اليوم هذه الطفلة على عاتقي وإن أضعتها ستدفع الثمن غالياً، خذ هذه بضع دراهم اشتري لها ولرفيقتها بعض الثياب ريثما أحضر لك الثمن .

عدت إلى فندقي وجلست على الشرفة أنظر إلى الكون ومحيطه وأتذكر صورة هذه الطفلة الملاك التي لم تفارق عيني ما أجملها وما أروع تلك الابتسامة البريئة وتعاملها البسيط مع القدر ،هذه هي وكل الأطفال مثلها، ليتنا نحمل الطفولة عندما نكبر في قلوبنا لعلنا نكون مثلهم، نتعلم منهم ونأخذ منهم نقاء القلوب وصفاؤها، إن عالم الطفولة عالم مخملي مزين بقلوب كالدرر وأرواح نضرة الطهر، إن طفلتي هذه زهرة ربيع أطلقت عليها نسمة الرياحين لا أدري، أصبحت الآن أدرك أنها قصة حلمي

قصيدة رثاء للماضي والحاضر معاً، إنها الحياة وروح لهذه الحياة، كانت هذه الطفلة هي الشيء الوحيد الذي استطاع أن ينسيني جيهان وبحثي عنها وأن عقلي استبدل جيهان ولعنتها علي بهذا الملاك الطاهر.

ولكن ما أعاد ذكرة جيهان إلى رأسي فجأة هو دخول فاطمة إلى غرفتي في ذلك المساء وهي تعاتبني كيف اختفيت فجأة ولم أتصل بهما وأن زوجها غاضب مني حيث نسيت خدماتهما لي ولم أكترث لهما، فدافعت عن نفسي وقلت:

- أنني وجدت جنوني أحب الناس إلى قلبي فقررت الانسحاب .

فاطمة استوعبت الأمر وحاولت التهرب من الموضوع وذلك لتهون علي حيث يقال لا تذكر المريض بمرضه، فقلت لها:

- أريد أن أخبرك أنني وجدت جيهان ولكنها ليست هي التي كنت أبحث عنها، ورويت لها قصة جيهان الصفراء وأنني تعرفت على ابنتها ذلك الملاك

الأرضي، وأنني أفكر في تبنيها ولكنني أريد أن أستشير فكتوريا ويوليا ، وأنني خائفٌ من فكتوريا أن هجرني إلى الأبد و أن لا تسامحني على فعلتي، وخاصة أنني طوال هذه الفترة وأنا أبحث عن جيهان لم أتصل بها ولا حتى حاولت أن أبعث لها رسالةً، فقد كان البحث عن جيهان يأخذ مني كل تفكيري. أتعلمين يا فاطمة أتذكر أنني يوماً كنت جالسا مع فكتوريا نحتسي قهوتنا الصباحية، فقالت لي فكتوريا أنها رأت حلماً بشعاً قالت لي: رأيت أنني أمشي أنا وأنت في حديقة ليس لها آخر ولكن بيني وبينك كانت مسافة صغيرة وأنت أصبحت تبعد عني وتمسك يدك يد طفلة صغيرة لكنك كنت تبعد عني بسرعة الضوء كنت أناديك لكنك لا تسمعني ووقفت بيني وبينك امرأة كانت تنزف من ثديها قطرات أقحوان كأنه ندى يسقي قطرات الورد نظرت إلى جانبي رأيت أمنا

تقول لي اطمئني يا ابنتي وصدقيني إنه ذهب في رحلة قصيرة وسوف يعود.

وأضافت فكتوريا تقول لي بعد حلمها عن حديث كان يدور بينها وبين أمي وهي بالمستشفى قالت لها أمي:

- أتدرين يا ابنتي أن والد ابني كل يوم يزورني في الحلم، أسهر أنا وهو أتذوق منه كل العشق ولكن ما أقسى يوم يعلن الانسحاب، وكم أرادت الكراهية أن تنبت في داخلي للانتقام منه، ولكنه كان يعود كل ليلة يملئ سريري بالغرام ويقول لي: حبيبتي لك مني هذه الرسالة كوني أله الخير والطهر، عليك أن تفهمي رسالتي، يقول لي أن ابني أمانة في عنقك وما أن يصبح بين أيادي أمينة سأسمح لكي أن تأتي إلي وتعيشي معي لننام معاً في فردوس الرب العظيم. يا بنيتي إنه حذرني بأن لا أرحل حتى أتأكد أن ابني في أيادي أمينة وأخبرني أن ابني قدره بأن تكون المرأة جزءاً كبيراً في حياته

فهو لا يخسر امرأة حتى تحل مكانها امرأة أخرى اليوم هي أمه وغداً ربما حبيبته وبعدها من الممكن أن تكون ابنته، إن المرأة بالنسبة للرجل وردة تزين رجولة فارسٍ يفتخر بما جنى في معركته. إن المرأة بجانب الرجل هي الرحمة والخير وأنني أشعر يا بنيتي أنكِ أنتِ من ستحلين مكاني بجانب ولدي .

بعد أن أنهت فكتوريا حديثها معي احتضنتها إلى صدري وقلت لها :

- حسناً ها أنتِ بجانبي حبيبتي ولن يتبدل مكانك في قلبي وحياتي مهما كانت الظروف. حينها بكت فكتوريا وقالت: حبيبي أنا السبب في رحيل أمنا.
- لماذا وما ذنبك أنتِ في رحيل أمي ؟
- تلك الليلة تحدثت أنا وأمنا وقلت لها أنني أحبك و أريد أن نتزوج أنا و أنت .

وكم فرحت لكلامي وبدأت الدموع تنهمر منها وقالت لي :

- نعم يا ابنتي باسم الرب والمسيح وسيدة الطهر مريم العذراء أبارك حبك لولدي وأدعو اللّٰه أن تكون فرحة العمر وتملؤوا الدنيا أولاداً، خجلت منها قبلتها وخرجت وعندما وصلني الخبر أن أمنا رحلت بكيت مرتين، مرة على رحيل أمنا ومرة لأنني أنا التي فتحت لها باب الرحيل، يا إلاهي كم كانت تنتظر اللقاء بحبيبها .

فتوجهت بكلامي إلى فاطمة وقلت لها :

- إنني أعلم أن فكتوريا الآن قد فهمت أنني رحلت عنها لأن قدري أن أكون اليوم مع جيهان، واللّٰه سأتحدى القدر ولن أستبدل فكتوريا، وحتى لو تخلت عني، لن أتخلى عنها وسأعيش كل العمر وحيداً.

ابتسمت فاطمة وقالت :

- متى تعود إليك البسمة التي كنت أراها يوم رأيتك أول مرة، أرجوك يا سيدي أعد البسمة إلى وجهك

إنني أبكي كل ليلة من حزني عليكَ كم أنت شخص طيب، إنني أرى الملائكة حين أنظر إليك، إنني أخاف من سركَ ولكن قلبي يطمئن حين ينظر إليك، قبل أن أراكَ كنت أفكر بأن أهجر زوجي بعد أن أولد، لأنني بصراحة لم أكن أريد أن أنجب منه أطفالاً يحملون اسمي، لكنني عندما تعرفت عليك فهمت كم الدنيا مليئة بالطيبين وإن الطهر يوماً لن يموت في قلوب الناس جميعهم، لا يهم إن كانوا أغنياء أو فقراء، مجرمين أو أمراء، إنك غيرت نظرتي إلى الحياة التي لا ترى سوى العهر في الأغنياء، ولكنك فتحت عيني لأجد الطهر في العهر، ها أنت الأمير الغني تبحث عن عاهرة كما فهمت من الذين تكلموا عنها، فأنا بعد اليوم أصبحت أصدق قصتك مع جيهان وأن جيهان موجودة، ابحث عنها إنني أعتقد أنها تناديك، ابحث عنها لا تمل البحث لعلك أصبحت قريب منها.

قالت هذا فاطمة وخرجت، يا إلهي كانت تكلمني فاطمة ولكنها لم تكن عيون فاطمة، آه يا قدري ها قد ُسحرت المسكينة فاطمة بسحري، وعلى الفور كتبت لها رسالة وقلت لها فيها (شكراً على هذه الكلمات الطيبة وأتمنى لك ولزوجك حياة الهناء والسعادة وأرجوكِ لا تتركِ البسمة تفارق وجهك وأعدك بأنني سأعيد البسمة لوجهي أيضاً حال ما أحل لغز جيهان) .

وفي المساء ذهبت إلى صالة الديسكو والتقيت بصديقي عبد اللطيف هناك، فقال لي: كيف الحال منذ مدة لم تزورنا، توقعت أنك وجدت جيهان. ضحكت له ودخلت القاعة وشربت من الخمر ما يكفيني لمدة سنة كاملة، للمرة الأولى كنت أشرب ولا أفكر ولا أبالي بشيء، وفي الفجر عدت إلى غرفتي ونمت نوماً عميقاً، كان عقلي وروحي وخيالي في استراحة. عندما استيقظت في الصباح أخذت هاتفي وإذ بفاطمة متصلة بي أكثر من عشرين مرة، تعجبت لهذا، ودعوت الرب أن لا يكون قد أصاب فاطمة أو

زوجها مكروه، وعلى الفور اتصلت بها ولكن هاتفها كان مغلقاً، وفجأة قرع جرس الباب والحمد للرب كانت فاطمة هي من تقرع الجرس، فقلت لها: عسى أن يكون خيراً، ماذا جرى؟ ما بك يا فاطمة؟ هل أصاب زوجك أو أولادك مكروه لا سمح اللّه؟ فقالت لي: لا اطمئن، ليس هناك شيءٌ من هذا القبيل، ولكنني أحببت أن أخبرك أنه قد زارنا يوم أمس ضابط الشرطة وهو يسأل عنك لأنه كلف بالتحقيق في قضية مقتل المرأة الصفراء، وعلى الفور ذهبنا إليه بعد أن تكلمنا إليه بالهاتف.

وصلنا إلى قسم الشرطة، وكنت أول مرة أعرف ما هو قسم الشرطة فكان يقف عند البوابة شرطي أظن أنه لم يعرف ما هي البسمة في حياته، كانت وظيفته أن يفحص جوازات السفر والبطاقات الشخصية وبعد عناء طويل مع هذا الشرطي وفحص جواز سفري وبطاقة فاطمة الشخصية دخلنا إلى السيد عمر المحقق الذي حدثنا عن ملف تلك المرأة الصفراء، لا أدري ما الذي أراده ضابط الشرطة مني

ولكنني كنت أرى في عينيه شيئاً يرعبني، لم أكن أعلم ما هو ولكنني بدأت أخاف بأن يتهمني بقتلها، فعندما دخلنا إلى مكتبه أصبح رجلاً آخر غير ذلك الذي نعرفه، حتى فاطمة لم يعيرها أي اهتمام، اكتشفت ساعتها أن رجال الشرطة عندما يكونون في عملهم لا يكون لهم صاحب، يفكرون ويبحثون فقط أين تكمن الحقيقة ولكنني بعد قليل أصبحت متهماً بالقضية فعلاً .

أخذوني إلى مكان الجريمة وشعرت أنني المجرم بالفعل الذي جرته النيابة إلى مكان الجريمة ليعترف ويمثل جريمته، كان القلق بدأ يصيبني ولكنني كنت أستمد قوتي من وجه فاطمة الذي بدا عليه الاطمئنان، ولكنني عندما وصلت إلى مكان الجريمة أصابني ذعرٌ وهلعٌ شديد لم يصيبني من قبل، شعرت بأن أقدامي لم تعد تقوى على حمل جسمي، كان ضابط الشرطة ينظر إلي بكل هدوء، وعندما مددت يدي وأشرت بأصبعي إلى المكان كان لساني قد شل ورفض النطق وشفاهي رفضت أن تغلق على

بعضها وعيوني جحظت من مكانها وكأنها تريد أن تسقط من وجهي، مرت لحظات شعرت بأن جسدي تحول إلى تمثال لا روح فيه، ولكن صراخ المحقق أيقظني من حالتي. هل تعرف هذا المكان؟ فقلت له: نعم هنا توقفت أنا وجيهان حين قالت لي لا تقترب من هؤلاء الشبان قد يقتلونك إنهم مجرمون فقال لي عمر هنا قتلت المرأة الصفراء .

أصابتني القشعريرة وأنا أسمع ما يقوله المحقق عمر، أصبحت أظن أنني أنا من قتلت الصفراء وأنا في حالة سكر، فأنا في بعض الأحيان أفقد ذاكرتي حين أشرب الكثير من الخمر، ولكن الذي كان يريحني أن هذه المرأة قتلت قبل سنة ونصف وأنا لم أكن في هذا البلد.

طوال الطريق وأنا في سيارة الشرطة كانت الأسئلة تحاصرني إلى أن دخلت السجن المركزي الذي يبعد مدة سفر ساعة عن القسم الذي ذهبنا إليه. هذا السجن له بابٌ كبير وجدرانه مملوئة بالأسلاك الشائكة وموجودٌ به

المجرم و البريء، والكل فيه ينتظر الحرية، كم من ليالي مزق خيالهم الجدران ليروا سماء الحرية .

نظر إلي المحقق عمر وقال: لا تخف لقد أتيت بك إلى هنا حتى ترى شيئاً سلم جواز سفرك لهذا الشرطي وأخرج ما في جيوبك واتبعني.

دخلنا غرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى شاشة تلفاز صغيرة وقال لي المحقق عمر انظر ما سيظهر على الشاشة وأمعن النظر جيداً، وعندما نظرت إلى الشاشة ظهر شابان من خلالها، صرخت وسقطت على الأرض لأن أقدامي لم تعد تحملني، وقلت: يا أيها الرب ما الذي أراه نعم هذان هما الشابان اللذان كانا يوم رافقت جيهان ولكن كيف قتلوها مرتين؟ فقال لي المحقق: لا إنهما في السجن منذ سنة، لحظتها أغمي علي وعلى الفور استدعوا لي الطبيب الذي أفاقني برائحة تفيق الميت من قبره، وأخذت أبكي وأبكي وقلت حينها لفاطمة إنني لست مجنوناً، يشهد الرب لقد كنت مع جيهان وأنني رأيت هذين الشابين والله أنني أشعر

أنها الآن معي وتسمعني ولأول مرة أشعر أن جيهان تبكي معي .

بعدها خرجنا وجلسنا في إحدى الاستراحات وهناك حدثني المحقق وقال لي: سأتكلم معك بصراحة فبعد خبرة دامت أكثر من عشرين سنة في سلك التحقيقات أنا الوحيد الذي سيصدقك، واليوم أصدقك أكثر، فعندما يغدر بالإنسان ويُقتل تظل روحه حول المحقق حتى أن يجد القاتل، صدقني أكثر من مرة كنت أرى القاتل في حلمي وأكثر من مرة يقوم المجني عليه ويدلني هو على من قتله حتى تلك الصفراء رأيتها يوماً في حلمي طفلة ذات خمسة عشر سنة، تخرج من قصرٍ كبير، تحمل على رأسها شعراً أبيض سحبت لونه السنين كأنها بنت السبعين، قالت لي: هنا اغتصبني المجرمون وسلبوا مني عذريتي وبعدها وصلت إلى ذلك المكان وقالت هنا سلبوا الحياة مني وقتلوني رأيت هذين الشابين في حلمي، وفي اليوم التالي وأنا داخل إلى مركز التحقيقات شاهدت واحداً منهما يجره أحد عناصر الشرطة

نظرت إليه وسألته: ما جرمك؟ قال لي: جرمي سلب محفظة من إحدى السائحات بعد ضربها على وجهها ولكن سيارة الشرطة كانت قريبة وألقت القبض علي. لا أعلم لماذا شعرت أن هذا الوجه هو الذي أتاني في الحلم وعلى الفور قررت فتح ملف التحقيق في قضية الصفراء بعدما كنت جهزته لإرساله إلى النيابة العامة لإغلاقه وتسجيل القضية ضد مجهول، وبدأت معه التحقيق ولكنه كان مصراً على أنه لن يعترف، فقررت أن ألعب معه لعبة قذرة نستعملها كثيراً في تحقيقاتنا مع المجرمين، كنت قد علمت بعد التحريات بأنه يعيش مع أمه وأخته الوحيدة في إحدى الأرياف وعلمت أيضاً أن له صديقٌ حميم يشاركه في كل شيء، وأنهما من أصحاب السوابق وهما أيضاً مطلوبان للعدالة ولكن لم تسنح لنا الظروف أن نمسك بهما ، ومن خلال التحقيق معه في قضية المحفظة التي سرقها ثبت لنا أنه على خصام مع رفيقه من أجل إحدى عمليات السلب التي قاموا فيها وصديقه لم يعطيه حقه من غنائم السرقة

فاخترعت له قصة قلت له بأن صديقه موجودٌ عندنا وتم القبض عليه، بعد ما أن اغتصب أخته واعترف عليه أيضا بأنه هو من قتل الصفراء طبعاً دام التحقيق معه عدة أسابيع وعندما استطعنا أن ندخل برأسه قصة صديقه الذي اغتصب أخته واعترف عليه بأنه شريك بجريمة قتل الصفراء ما كان منه إلا أن اعترف بما حدث وأنه قتل الصفراء مع صديقه أمام البنك .

بعدها داهمنا بيت صديقه وأتينا به إلى فرع التحقيق واعترف أيضاً بجريمته ومثلوا الجريمة، وهاهم بالسجن يخضعون للمحاكمات لأكثر من سنة و جيهان قتلت منذ سنة ونصف ولقائك معها لم يكن منذ بضع شهور لقائك معها كان منذ سنة ونصف .

فقلت له: وما دوري أنا بهذه الجريمة يا حضرة المحقق؟ فقال لي: أولا أنت أرحت ضميري الذي كان يعذبني طوال هذه المدة مع المجرمين الذين قتلا الصفراء، لأنهما كلما ذهبا إلى المحاكمة وبعدما علموا أنني خدعتهما بحكايتي،

كانا يقولان للقاضي أنهما مظلومان، وقد اعترفا تحت تأثير وسائل التعذيب التي كنت أستعملها معهما بصفتي محققاً في هذه القضية لدرجة أنني أصبحت أشك في نفسي، وأخاف أن أكون بالفعل قد ظلمتهما لأنني في القضية اعتمدت على إحساسي و ليس على الأدلة، وعندما وجدتك أنت أكدت لي بأنهما المجرمان وأرحت ضميري .

فقلت له: هذه فهمتها وأنا ما قصتي أرجوك أن تشرح لي أكاد أجن، فقال لي: إن من كان معك في تلك الليلة التي ضاجعت فيها الصفراء لم تكن جيهان إن من كان معك في تلك الليلة كان هو شبح جيهان لأنك عندما حصلت الجريمة هربت ولتوهم نفسك أنك ليس لك علاقة بالموضوع ذهبت إلى المقهى وحدك وشربت من الخمر ما يكفي عشرين سكير وأوهمت نفسك أنك مع جيهان وقد حصلت لك مشكلة نفسية وكنت بحاجة للمعالجة بالفعل وأن شبح جيهان كان يطاردك ليس من أجل أن يعاقبك بل كان هذا هو الضمير الذي يعذبك لأنها قتلت بسببك ومن أجلك وقدرة

الرب تعلو فوق كل شيء يا أيها السيد النبيل فإنني علمت من فاطمة بأنك وجدت ابنتها وقلت لها أنك تريد أن تتبناها لذلك كانت قدرة الرب عظيمة عندما أمر شبح جيهان بمطاردتك ولم يتركك حتى أوصلك إلى طفلتها التي سيكون مصيرها مثل مصير أمها وهي بين أيادي الظلام.

فقلت له وأنا أبكي: يا سيدي هذا يعني أنني لم أكن خائناً لزوجتي فكتوريا التي عاهدتها أن لا أخونها طوال حياتي، كما أنني أيضا لم أخدع جيهان وقصة المائة دولار كانت وهماً لا أكثر .

فقال لي المحقق: يا أيها السيد المحترم إن قصة المائة دولار كانت هي رأس الخيط التي بدأ معك فيها الضمير حتى تكفر عن ذنبك ولأن الرب أيضاً لم يكن يريد أن يتركك في معصية ، فرضا أمك عليك قتل جيهان قبل أن يوصلك إلى حبل الخيانة لأن الرب يحبك والإيمان الذي صنعته أمك لك طوال هذه السنين لم يذهب سدا وحب زوجتك فكتوريا لك

وتضحيتها معك أيضا جعلوا من القدر سداً منيعاً بوجهك حتى لا تكون خائن للعهد الذي قطعته على نفسك .

كان أول طريق تقودني له أقدامي بعد جلستي مع المحقق العظيم بل الطبيب الرائع، هو ذهابي إلى مكان طفلة جيهان حيث دفعت لهؤلاء الأوغاد ما يريدون من مال وأحضرت الطفلة وأحضرت كل ما يتطلب مني من أوراق رسمية وإجراءات قانونية لتبني الطفلة، واتصلت بحبيبتي فكتوريا وذهبت إليها مع طفلتي الجميلة والتي أسميتها جيهان مثل اسم أمها رحمها الله وأخبرتها الحقيقة حيث صدقتني بعد عناءً كبير، واستقبلت جيهان الصغيرة بكل حنان واعتبرتها أيضا ابنتها الحقيقية وأصبحت أختاً لولدي مكسيم وهي اليوم في العشرين من عمرها على عتبة التخرج من كلية الطب، لم تقبل بكل من تقدم لخطبتها فهي تقول أنها لن تتزوج حتى لا يسرقها مني ومن فكتوريا، مع أننا أنا وفكتوريا كثيراً ما نقنعها بذلك وهي مصرة على عدم الزواج، و أدعو الله أن يحفظها لي هي وحبيبتي

فكتوريا وابني مكسيم فهم كنزي الذي حافظت عليه طوال تلك السنين.

**تمت**